إحسان عبد القدوس

الوسادة الخالية

قصص

الدار المصرية اللبنانية

الوسادة الخالية

قصص

إحسان عبد القدوس

الدار المصرية اللبنانية

الوسادة الخالية

في حياة كل منا وهم كبير يسمى:

الحب الأول..

لا تصدق هذا الوهم.. إن حبك الأول

هو حبك الأخير..

إحسـان

1

كانوا ثلاثة يسيرون فوق كوبري الجلاء، كأنهم بقايا جيش يتقهقر
بلا نظام..

كان كل منهم يجر ساقيه كأنه يجر وراءه شبابًا لم يعد يقوى على حمله، وكل منهم قد خلع سترته وألقى بها فوق ظهره، كأنه لم يعد يطيق شيئًا فوق جسده، وكل منهم غارق في عرقه حتى بدا أنه من الأفضل له أن يسبح بدلًا من أن يمشي..

وكان ثلاثتهم في صمت مكدود، لا تتبين منه إلا معنى واحدًا يطل من عيون الثلاثة: الجوع..

ومروا بعربة تين شوكي، فتثاقلت خطاهم حتى بدا أن أقدامهم سُمِّرت في الأرض، ونظر كل منهم إلى الآخر نظرة حسرة واستسلام ثم ازدرد كل منهم ريقه، وهز كتفيه كأنه ينفض عنهما أتربة الدهر كله.. وعاد ثلاثتهم يجرون سيقانهم فوق كوبري الجلاء!

إنهم ثلاثة من طلبة مدرسة القبة الثانوية.. وقد خرجوا من المدرسة في الساعة العاشرة صباحًا قفزًا من فوق السور - كعادتهم - وذهبوا إلى نادي التجديف، وظلوا يجدفون حتى أفنوا كل طاقة شبابهم فوق المجداف، ثم خرجوا من النهر وكل عضلة من عضلاتهم تنتفض جوعًا..

وهنا فقط تذكروا أنهم لا يملكون مليمًا واحدًا.. وأن كل ما كان معهم من قروش قليلة قد أنفقوه أجرًا للمواصلات التي حملتهم إلى النادي.. خصوصًا وأنهم فضلوا الركوب في عربة الدرجة الأولى، حفظًا لكرامة الطلبة!!

ولم يتناقشوا طويلًا، إنما شد كل منهم حزامه فوق بطنه وخرجوا من النادي، وقد قرروا أن يسيروا حتى محطة المترو، ليحملهم إلى بيوتهم في مصر الجديدة..

ولم يكن ركوب المترو بلا تذكرة وبلا أجر، مشكلة بالنسبة لهم، فيكفي أن يقابلوا الكمساري بنظرة قوية فيها شيء من التهديد، ثم يعقبوها بابتسامة فيها نوع من الرجاء.. فيفهم الكمساري وينصرف عنهم في سلام!!

إنما المشكلة بالنسبة لهم كانت منحصرة في إسكات هذا الصراخ الحاد الذي يرتفع في أمعائهم ويكاد يمزقها.. صراخ الجوع!!

وربما فكر واحد منهم في أن يهجم على بائع السميط ويخطف كعكتين ويفر هاربًا..

وربما فكر الثاني في أن يفتعل ضجة أو مشاجرة داخل النادي يخطف خلالها قطعتين «ساندويتش» من «البوفيه» دون أن يلحظه أحد..

وربما دارت مثل هذه الأفكار في أدمغة الثلاثة في وقت واحد ولكنهم لم يفصحوا عنها، ولم يجرؤ أحدهم على إخراجها إلى حيز التنفيذ..

وسار ثلاثتهم يجرون سيقانهم فوق كوبري الجلاء!!

وعندما وصلوا إلى سراي المعرض الزراعي لمعت عينا أحدهم، ومد عنقه إلى الأمام، وقفزت من وجنتيه بعض قطرات من الدماء كأنه كان يدخرها لمثل هذه المناسبات، ثم لكز زميله في جنبه، وهو يقول في صوتٍ حشرجه الأمل:

- شايف اللي ماشيين على الرصيف التاني دول؟!

ونظر زميله إلى الرصيف الثاني.. إلى ثلاث فتيات في ثياب المدرسة، يسرن متضاحكات.. فارتسمت على شفتيه ابتسامة كأنها ابتسامة ذئب صغير لم يتعود بعد فنون الذئاب.. وقال وقد راوده نفس الأمل الذي راود زميله:

- دول زي ما يكونوا متفصلين علينا!!

أما ثالثهم فلم يبدُ عليه أنه لاحظ ما لاحظه زميلاه، ولم يراوده الأمل الذي راودهما.. كان أشدهم جوعًا، وأشدهم تعبًا، وكان ينظر ساهمًا إلى تمثال سعد زغلول، وكأنه يشكو الجوع لسعد!

وجذبه زميله من يده ليعبر ثلاثتهم الشارع إلى الرصيف المقابل..

وأصبحوا يسيرون خلف الفتيات الثلاث..

وقفزت إلى شفتي أولهم ابتسامة عريضة وعاد يقول لزميله وقد استبد به أمل كبير:

- شايف البنت اللي على اليمين شايلة إيه؟!

وكانت الفتاة تحمل لفافة تبدو فيها بعض قطع الساندويتش!

ومسح الثاني شفتيه بلسانه، وقال وهو يشير إلى الحقائب المدرسية التي تحملها الفتيات الثلاث:

- ده غير اللي في الشنط!!

أما الثالث فكل ما لاحظه أنه وزميلاه مقبلون على معاكسة بعض الفتيات، ولم يكن الجوع والتعب قد تركا منه شيئًا يقبل به على مثل هذه المعاكسات، وربما استسخف من زميليه أن يقبلا على مغامرة جديدة في الساعة الثانية بعد الظهر، في هذا الحر القاتل الذي يذيب الروح والأعصاب ويصد النفس.. ولكنه لم يستطع أن يقول لهما شيئًا، فإن معاكسة الفتيات تقليد محترم بين الطلبة يجب أن يخضع له الجميع.

وشد الأول ظهره، وأخرج منديله ومسح به قطرات العرق التي تغطي وجهه، وأزاح خصلات شعره من فوق جبينه، ونفخ من بقايا قوته في ساقيه، وتقدم في خطوات رشيقة هاتفًا في صوت مهذب:

- من فضلك يا آنسة..

والتفتت الآنسات الثلاث إليه، وعلى وجه كل منهن علامة استفهام..

وقال في صوت يقطر أدبًا مصطنعًا:

- يا ترى معرض إيه اللي هنا؟!

وقالت إحداهن وعلى شفتيها ظل ابتسامة:

- معرض مدرسة الفنون الطرزية..

ونطقت اسم المدرسة في اعتزاز كبير..

وقال الثاني وكان قد لحق بزميله:

- يا سلام.. ده لازم معرض عظيم جدًا.. مدرسة الفنون الطرزية دي أحسن مدرسة في مصر!!

وعاد الأول يسأل في أدب:

- أظن مسموح الواحد يدخل يتفرج؟

وقالت الفتاة:

- أيوة.. اتفضلوا!!

وسأل الثاني:

- وحضراتكم طالبات في المدرسة؟

وردت اثنتان منهن في صوت كأنه تغريد:

- أيوة!

ومد الأول يده والتقط كف إحداهن وهزها بحرارة قائلًا كأنه قد تم التعارف بينهما:

- تشرفنا.. دي فرصة سعيدة جدًا!!

وصافح كل من الفتيان الثلاثة، الفتيات الثلاث، ثم قال الأول وهو أكثرهم زلاقة لسان:

- أظن الأحسن تتفضلوا معانا علشان تفرجونا على المعرض، خصوصًا إن أختي موصياني من زمان أشتري لها مفرش، وأنا ما أفهمش في المفارش..

وقال الثاني:

- وأنا نفسي أشتري لوالدتي فستان، ومشترطة عليّ أنه يكون من شغل مدرسة الفنون الطرزية!!

وقالت الفتاة الأولى:

- إحنا رايحين جنينة الأندلس نستريح شوية.. وبعدين نرجع المعرض تاني و...

وقاطعها الأول:

- عال جدًا.. نيجي معاكم ونرجع معاكم..

وسار الجميع نحو حديقة الأندلس، واختار الأول فتاة انشغل في الحديث معها، واختار الثاني الفتاة الثانية.. أما الثالث فلم يختر لنفسه أحدًا، إنما سار صامتًا، وسارت بجانبه الفتاة الثالثة صامتة أيضًا..

وعند باب الحديقة كان عليهم أن يدفعوا أجر الدخول.. قرش صاغ لكل منهم..

ولم يبد التردد على أحد من الفتيان الثلاثة، إنما قال أولهم بصوت طبيعي:

- يا ترى نلاقي فكة خمسة جنيه هنا؟!!

وقالت الفتاة الأولى دون أن يداخلها شك:

- على إيه تفك.. أنا معايا فكة!!

ودفعت الفتيات أجر الدخول للفتيان الثلاثة.. وغمز أولهم إلى زميله مهنئًا بالنصر الأول..

وجلسوا على آرائك متجاورة في ظلال الشجر، كل اثنين منهم فوق أريكة، وفتحت كل فتاة حقيبتها وأخرجت لفافة تضم قطع الساندويتش..

وقدمت الفتاة الأولى قطعة من الساندويتش إلى رفيقها، فقال مترددًا:

- والله أنا لسه متغدي..

وكادت الفتاة تعيد قطعة الساندويتش إلى مكانها لولا أن التقطها منها قائلًا:

- إنما ما دام إنتي اللي عملاه بإيديك لازم أدوقه!!

ونزع اللفافة المطبوع عليها اسم المحل الذي يبيع الساندويتش وازدرده في لقمتين!!

وقال الثاني وهو يطل بعينيه في حقيبة زميلته ويحسب عدد قطع الساندويتش ويخصص نصيبه منها:

- كان حقكم اتغديتوا معانا في نادي التجديف!!

ثم مد يده قبل أن تدعوه والتقط قطعة ساندويتش قائلًا:

- يظهر إن اللي يقعد معاكي تتفتح نفسه.. أنا لما حاتجوز حاشترط في اللي أتجوزها إنها تفتح نفسي..

وقبل أن ترد الفتاة، كان يمد يده إلى القطعة الثانية..

أما الثالث فكان يجلس صامتًا، يتململ في مكانه، ويزفر أنفاسًا حارة، ويضع رأسه بين يديه أحيانًا كأنه يريد أن ينام، ثم يرفعها ويأخذ في دق الأرض بقدمه دقات عصبية أشبه بدقات طبول الثورة..

ولم يكلف نفسه أن يحادث الفتاة التي بجانبه، ولم يحاول أن يتودد إليها ولو من أجل قطع الساندويتش، بل لم يأبه بالنظر إلى وجهها ليعرف إن كانت سمراء أم شقراء.. كانت مجرد شيء بجانبه لا ذنب له فيه!!

وأخذت تختلس النظر إليه.. إلى ساقيه الطويلتين، إنهما أطول مما يجب وكأنهما يريدان أن يرتفعا بصاحبيهما إلى السماء.. وإلى قوامه الرفيع، إنه أرفع مما يجب حتى يبدو كأنه خط مستقيم.. وإلى وجهه، إن ملامحه ليست وسيمة ولكنها قوية، توحي إليك بالاطمئنان والهدوء والابتسام.. شيء فيه يجذبك إليه، وشيء فيه يكشف لك عن قلبه الطيب، وروحه المرحة، ونواياه البيضاء..

وفتحت حقيبتها وأخرجت طعامها بعد تردد طويل، وكأنها كانت تخجل من أن تأكل أمامه، أو كأنها شبعت من مجرد اختلاس النظر إليه..

وأمسكت بقطعة ساندويتش، وقبل أن تصل بها إلى فمها توقفت قليلًا كأنها تستجمع قواها وتنفض حياءها عن نفسها، ومدت يدها إليه، قائلة بصوت ضعيف:

- اتفضل..

ورفع عينيه إليها وكأنه لا يراها، ثم نظر إلى قطعة الساندويتش والتقطها منها، وقبل أن يحس بها في يده كان قد وصل بها إلى فمه..

وراقبته وهو يأكل في نهم كبير، كأنه يسترد حياته.. ثم أعطته قطعة ثانية، وثالثة، ورابعة.. وكان هذا هو كل ما تحمله معها من قطع الساندويتش، ولم يزد عن أن يقول بين كل قطعة وأخرى:

- متشكر..

ولم يلحظ أنها أعطته كل نصيبها، وأنها لم تأكل شيئًا سوى قطعة أو قطعتين من «المخلل» الذي كانت تزوده به بين اللقم التي يمضغها ويكاد يبتلعها..

ونظر إلى حقيبتها ولما لم ير فيها مزيدًا من «الساندويتش» مد ساقيه أمامه، ومال بظهره إلى الخلف، وبدأ يفكر في شيء يقوله لها..

وقبل أن يقول شيئًا مر بائع «الكازوزة» فاستوقفته الفتاة وأخذت منه زجاجة، فاعتدل في جلسته فجأة وفي حركة مباغتة، وقال وهو يكاد يصيح وكأنه يريد أن يحول دون كارثة ستلحق بهما:

- أنا آسف.. ما فيش معايا ولا مليم!!

وابتسمت الفتاة حتى كادت تضحك، وقالت:

- معلهش.. أنا معايا!!

ودفعت للرجل ثمن زجاجتين..

وأمسك بالزجاجة في يده ونظر إليها.. نظر طويلًا.. ورآها لأول مرة..

إنها لا تتجاوز السادسة عشرة من عمرها.. سمراء، صغيرة القد، كل شيء فيها يتنهد برقة وضعف.. عيناها الواسعتان تتنهدان، وشفتاها المكتنزتان تتنهدان، ووجنتاها العاليتان تتنهدان، حتى يداها الصغيرتان تتنهدان.. إن لجمالها الهادئ صوتًا كرفيف أجنحة الملائكة تسمعه بخيالك، فإذا استمعت إليه طويلًا أثار منك الخيال حتى يدفعك إلى أن تحطم الملاك!

وضمها بعينيه صامتًا، حتى خشي عليها من عينيه..

وأحرجتها نظراته، وارتفعت الدماء في موكب صاخب ملتهب لتستقر بكل ما فيها من نار، فوق وجنتيها..

وحاولت أن تتشاغل عنه بزجاجة الكازوزة!!

وأخيرًا قالت وقد خافت كل هذا الصمت:

- ما كنش يصح إني أكلمك أو آجي معاك هنا.. دي أول مرة أكلم فيها واحد ماعرفوش.. إنما صاحباتي هم السبب.. يا ترى بتقول عليّه إيه دلوقت بينك وبين نفسك، وحاتقولوا علينا إيه بعد ما نسيبكم؟!

ولم يدرِ بماذا يجيبها.. وهو في الواقع لم يتعود أن يحادث الفتيات الصغيرات، بل تعود أن يتعالى عليهن ويبدو أمامهن إنسانًا كبيرًا غامضًا.. ومنذ أن اعتبر نفسه رجلًا وهو لا تجمعه بالنساء إلا مغامرات عنيفة صاخبة

يشترك فيها زملاؤه كلهم، ويمزق بها شبابه ولياليه، ولا يحتملها إلا صنف واحد من النساء..

واكتفى بأن يقول لها وهو يجمع كلماته بصعوبة:

- لأ.. ما فيش حاجة.. بسيطة!!

وأغضبها هذا الرد القصير المبتور الذي لا يحمل معنى يرضيها، فقامت كأنها تقطع حلمًا جميلًا، ومدت يدها إليه:

- أورفوار بأه.. لازم أروح دلوقت..

وأمسك بيدها ولم يتركها، وقال في صوت هادئ كأنه لا يدري أنه أغضبها:

- حترجعي المعرض؟

- لأ.. مروحة.

- ساكنة فين؟

ورفعت عينيها إليه وهو منتصب بقامته الطويلة أمامها، وللمرة الثانية تأكدت أنه أطول قامة مما يجب.. وللمرة الثانية رأت في ملامح وجهه هذا الشيء الذي يكشف لك عن قلبه الطيب، وروحه المرحة، ونواياه البيضاء..

وهدأت غضبتها، وقالت وقد أرخت أهدابها فوق عينيها:

- ساكنة في مصر الجديدة.. شارع السبق..

قال وكأنه وجد أخيرًا شيئًا يقوله:

- ده إحنا جيران.. أنا ساكن في الزيتون..

وظلت يدها في يده..

وقالت وقد عاد الصمت يحرجها:

- أنا اتأخرت قوي.. لازم أروح دلوقت..

وجذبت يدها من يده..

وقال ملهوفًا كأنه يريد أن يلحق بها قبل أن تختفي من حياته:

- أقدر أعرف اسمك؟!

وقالت مبتسمة:

- سميحة..

- أنا اسمي صلاح.. صلاح كامل!!

- أورفوار..

ومرت على صديقتيها، فأنهت كل منهما حديثها مع رفيقها ولحقتا بها..

وخرجت الفتيات الثلاث من حديقة الأندلس..

واجتمع الفتيان الثلاثة وقد استرد كل منهم شبابه، وصاح الأول ضاحكًا بملء شدقيه:

- آدي احنا اتغدينا بلاش، ودخلنا الجنة بلاش، وكل واحد خد حورية بلاش..

وصاح الثاني:

- ويرزقكم من حيث لا تعلمون..

وعاد الأول يصيح:

- أنا أخدت ميعاد مع البنت بتاعتي لبكره.. دول عندهم عربية بويك!!

وقال الثاني:

- يظهر أن البنت بتاعتي غاوية تليفونات.. حتضربلي تليفون النهاردة الساعة سابعة!!

والتفت الاثنان إلى صلاح وقال أحدهما:

- مالك مبلم كده ليه.. أوعى تكون نمت في إيد البنت!!

وقال صلاح مبتسمًا:

- يا جماعة حرام عليكم.. دول بنات عائلات!!

وقال الأول صارخًا:

- أهلًا.. إزيك يا أستاذ ضمير.. كنت فين من زمان!!

وخرج الثلاثة يسيرون فوق كوبري قصر النيل.. كأنهم طلائع جيش منتصر..

* * *

كان هذا يوم لقائهما الأول.. اليوم الذي لا يستطيع أن ينساه..

وقد نام ليلتها ورفيف جمالها يملأ خياله.. ورفض في اليوم التالي أن يجلس مع زميليه في ملعب التنس يروي معهما مغامرة الأمس لبقية الزملاء..

كان يشعر أن هناك شيئًا جادًا قد دخل حياته، وكان يشعر أن مغامرة الأمس هي أكثر من مغامرة، وكان يضن بتفاصيل هذا الأمس أن يسمعها على أفواه زملائه الطلبة، ورفض في إصرار أن يقول اسم الفتاة لزميليه بعد أن صرح له كل منهما باسم فتاته..

كان يعتز بها وباسمها، وخيّل إليه أنه يغار عليها، وأنه أصبح يغار عليها إلى حد أن بدأ يلومها - بينه وبين نفسه - على اشتراكها في مغامرة الأمس.. كيف سمحت لنفسها أن تحادث شبانًا التقت بهم في الطريق، وكيف سمحت لنفسها أن تشركه في طعامها دون أن تعرفه، وكيف سمحت لنفسها أن تصرح باسمها وعنوانها!!

ألا تدري أنه ربما يكون سافلًا كبقية الزملاء؟!

ولكنه كان متأكدًا أنه ليس سافلًا.. حقيقة أنه اشترك في كثير من الليالي السافلة.. ولكنه اليوم، ولأول مرة في حياته، وبعد أن أصبح في التاسعة عشرة من عمره، يحس أنه يستطيع ألا يكون سافلًا، ويشعر أنه يستطيع أن يحمي فتاته من كل السفلة بمن فيهم نفسه..

وأصبح رفيف جمالها يعذبه ليلًا ونهارًا..

وبدأ يبحث عنها..

ولكنها لم تقل له سوى أنها تسكن في شارع «السباق» بمصر الجديدة.. لم تقل له نمرة البيت، ولم تقل له اسم أبيها حتى يسأل عنه البوابين.. وحتى لو عرف بيتها، كيف يتصل بها؟

وبدا كأنها مشكلة كبيرة..

وفي الساعة السادسة مساء ذهب إلى شارع السباق.. والبيوت هناك على جانب واحد، والجانب الآخر يحتله سور ميدان السباق..

وسار على الجانب الآخر، بجوار السور..

ولم يرفع عينيه إلى بيت من البيوت.. فقد كان يسير واجف القلب كأن كل من في هذا الشارع يعرف سره، ويعرف أنه يبحث عنها وعن بيتها، وكأنه لو رفع عينيه إلى أحد هذه البيوت سيلتقي بأناس يشيرون إليه ويسخرون منه..

سار في الشارع من أوله إلى آخره، ثم مال إلى الطريق الذي يؤدي به إلى ضاحية الزيتون.

وظل يتردد كل يوم على شارع السباق في نفس الساعة، ويسير على نفس الجانب، ويقطعه من أوله إلى آخره دون أن يرفع عينيه إلى بيت من البيوت..

ومرت عشرة أيام، وهو لا ييأس ولا يمل..

وفي اليوم العاشر، وقبل أن يصل إلى نهاية الشارع، سمع صوتًا كأنه أجراس السماء:

- صلاح.. صلاح!!

ورآها أمامه..

رآها في غير ثوب المدرسة، وكأنها غير الفتاة التي يبحث عنها.. كأنها نضجت وتم نضجها، وكأن قامتها قد

طالت، وكأن جمالها قد زاد حتى لم يعد في طاقة السماء أن تهبها مزيدًا من الجمال..

ولم يتكلم.. كأنه لم يعد له لسان ولا شفتان..

وقالت كأنها ثائرة، وكأنها غاضبة:

- إيه ده يا أخي.. عذبتني.. بقالي عشرة أيام بنادي عليك.. وحضرتك ولا أنت هنا!!

قال متلعثمًا:

- علي أنا؟!

- طبعًا.. أول يوم شفتك ضحكت لك وحضرتك ماخدتش بالك.. تاني يوم كبرت ضحكتي شوية برضه ما خدتش بالك.. تالت يوم صفرت لك ولا مين سمع.. رابع يوم طلعت الراديو حطيته في البلكون وفتحته على آخره برضه ما فيش فايدة إن حضرتك تبص ولا ترفع رأسك.. خامس يوم حضرت فرخ ورق كبير وكتبت عليه نمرة تليفوني بخط أسود عريض، وخليتك فايت وعلقت الورقة على سور البلكون.. قلت في عقل بالي إذا ما كنش بيسمع يمكن بيشوف.. اتضح أن حضرتك لا بتسمع ولا بتشوف.. سادس يوم أول ما شفتك قدام البيت رحت شايلة كرسي ورمياه في الشارع.. ولا نحن هنا، فضلت حضرتك ماشي على طول ولا كأنك فايت على ديار ليلى.. في الآخر قلت لازم ما بيجيش هنا علشاني، لازم له قصد تاني.. استنيت يوم واتنين، وكل يوم أشوفك فايت في نفس الميعاد..

وبعدين ما قدرتش.. اضطريت أسهي ماما وانزل علشان اسألك أنت بتيجي في الشارع ده ليه، وبتدور على مين؟!

ومد يديه والتقط يديها، بينما ابتسامته تقبلها في كل مكان من وجهها.. وضمها بعينيه طويلًا كما ضمها أول مرة رآها فيها، ثم قال بصوت خافت وكأن قلبه يتكلم عن غير طريق شفتيه:

- سميحة..

قالت وعيناها معلقتان بعينيه:

- نعم..

- ولا حاجة.. بس نفسي أقول: سميحة!!

وبدأت قصة حبه..

حبه الأول!!

2

وكان حبه الأول عفًا طاهرًا رفعه عن الأرض التي كان يعيش عليها مع زملائه الطلبة.. الأرض الحمراء التي كان يسفك فوقها لياليه قربانًا لشبابه، عندما كان شبابًا وثنيًا يؤمن بالقرابين!

أصبح إنسانًا غير الإنسان الذي عرفه زملاؤه.. لم يعد يشاركهم هذرهم الصاخب، ولم يعد يبادلهم هذه الألفاظ الجارحة، ولم يعد يجتمع بهم في ملعب التنس ليدخن معهم سجائر الحشيش، ولا يلتقي بهم ليلة الجمعة من كل أسبوع ليحاولوا أن يكونوا رجالًا في إحدى صالات الرقص على حساب امرأة مسكينة تظلمهم بجسدها المتعب، ويظلمونها بأجسادهم الفتية..

ولم يكن يتعمد الابتعاد عن زملائه، إنما وجد نفسه يبتعد عنهم، ووجد نفسه أرق من أن يلفظ لفظًا جارحًا، ووجد نفسه لا يطيق تدخين الحشيش، ولا يطيق امرأة محترفة.. كأنه قد بدأ يكتفي بحبه عن الدنيا كلها، وأصبحت أيامه تمر بين ساعة لقاء، وانتظار لساعة لقاء..

وكان كلما ذهب إلى لقائها، مرَّ على الرصيف المقابل لبيتها في شارع السبق دون أن يرفع رأسه ودون أن يبحث عنها بعينيه في النوافذ والشرفات، ثم ينحرف إلى أحد الشوارع الجانبية، ولا يكاد يسير فيه خطوات

حتى تكون قد لحقت به، فتضع يدها في يده دون أن تبادله تحية وكأنها لم تغب عنه أبدًا وكأن لقاءهما لم تقطعه الأيام، ويحتضن يدها الصغيرة في كفه الكبيرة صامتًا، ويضغط عليها برفق كأنه يضم جسدها كله في كفه.. وكأن في كفه نبضات قلبه!!

ويتحادثان.. حديثًا ليس له بداية ولا نهاية، وكأنهما لم يسكتا أبدًا عن الحديث حتى يبدآه من جديد، ولم يبدآه حتى ينتهيا منه..

وكان حديثهما دائمًا عذريًا صافيًا كدموع الفرح. حدثته كثيرًا عن عائلتها.. عن أبيها وأمها وأخيها، وروت له أدق التفاصيل حتى أصبح كأنه يعيش معها في بيت واحد، وأصبح يعرف بخياله موقع غرفتها من البيت، وموضع سريرها من الغرفة وموضع الدولاب والكنبة.. وأصبح يقول «عمي» ليعني أباها!!

وحدثها عن عائلته، حتى عرفت أمه وأخته وإيراد والده واسم الخادمة وأسماء قريباته وأعمارهن، ومن منهن شقراء ومن منهن سمراء، وأصبحت تكره منهن من تكره، وتحب من تحب، وكأنها عاشت معهن واختبرت عواطفهن.. وأصبحت هي الأخرى إذا قالت «طنط» إنما تعني أمه!!

وحدثته وحدثها، كل عن زملائه في المدرسة.. وكان صدره ينقبض كلما جاء ذكر زميلتيها اللتين كانتا تصحبانها يوم التقى بها لأول مرة في حديقة الأندلس..

وكان يخشى عليها منهما، أو كأن هاتين الزميلتين تعرفان سرًا لا يجب أن تعرفاه. وكأنهما تهددانه بإفشاء هذا السر كلما حاول أن ينساه.. وكانت هي الأخرى تنقبض كلما جاء ذكر زميليه اللذين كانا يصحبانه يوم عرفته، وكأنها كانت تخشى أن يعرف معهما فتاة أخرى، أو كأنها تخجل منهما لأنهما حضرا ساعة أن اقتحم الحب قلبها البكر..

وفي الوقت الذي كان يتمنى لها ألا تصاحب هاتين الزميلتين، كانت تتمنى له أيضًا ألا يصاحب هذين الزميلين..

واستمر حديث اللقاء، أو لقاء الحديث، أسابيع.. لم يجر بينهما أكثر من حديث، ولا أكثر من كفه الكبيرة تضم يدها الصغيرة..

وكانا كلما التقيا انتهيا إلى موضع قريب في صحراء مصر الجديدة، جلسا فيه ليستمر فيما بينهما من حديث.. وقد اتخذا من هذا الموضع عشًا لهما، لا يرضيان بغيره، ولا يستريحان إلا فيه، ولا تحلو لهما النجوى إلا فوق رماله..

ثم حدث في لحظة من هذه اللحظات التي تطفو بين سطور الحياة دون أن تسبقها مقدمات - وبينما هما جالسان في موضعهما فوق الرمال - أن سكت بينهما الحديث فجأة، وعبثًا حاولا أن يسترداه، إنما تعلقت

عينا كل منهما بالآخر في صمت خافق، وكأن حبهما قد شب على الحديث، وأصبح عليهما أن يفطماه!!

وطال بينهما الصمت الخافق..

وعرف كل منهما المصير..

وارتجفت شفتاه كأنهما شفتا مذنب تائب يسعى إلى المعبد لأول مرة، ويخشى ألا تقبل توبته..

وتزاحمت الدماء في وجنتيها كأن كل قطرة منها تزاحم الأخرى في الموكب المثير لتلمس شفتي المذنب التائب..

وأرخت أهدابها فوق عينيها.. ثم أحنت رأسها وتشاغلت تعبث في الرمال كأنها تبحث بينها عن مكان تختفي فيه من هذا الصمت..

ومد يدًا مترددة ومسح بها فوق شعرها في رفق، ثم قرب وجهه الملتهب إلى وجهها الملتهب.. فرفعت عينيها كأنها تستغيث من النار، فالتقت بشفتيه تنظران إليها في تضرع..

وتعلقت عيناها المستغيثتان بالشفتين المتضرعتين، كأنها لا تدري كيف تفر منهما.. ففرت إليهما!!

ولمس شفتيها أو كاد، وكأنه يخشى عليهما من شفتيه اللتين طالما شربتا في نهم من أفواه النساء الرخيصات.. وكأن هذه اللمسة الخفيفة قد طهرت شفتيه فأحس لها برجفة تسري في بدنه كله، كأن يد الله قد مسته وأمرته أن يكون ملاكًا.. فكان!!

وأحست هي للمسة شفتيه بشبه دوار.. كانت القبلة الأولى في حياتها، وكان في صدرها هاتف يتساءل: هل هذه هي القبلة؟!

وربما اعتقدت أن القبلة شيء أكثر من هذا الدوار اللذيذ الذي تحس به، وأكثر من هذه الضربات الراقصة التي يضرب بها قلبها، وأكثر من هذه النشوة الهادئة التي أنعشت أعصابها.. فظلت مغمضة العينين، مزمومة الشفتين، إلى أن شعرت بأنفاسه تقترب منها مرة ثانية، وشفتيه تلمسان شفتيها، ولكنها لم تكن هذه المرة مجرد لمسة.. كانت لحنًا كاملًا تعزفه الشفاه!!

وانتهى اللحن!!

ونظر إليها كما نظر إليها لأول مرة.. كان كل شيء فيها يتنهد برقة وضعف.. عيناها الواسعتان تتنهدان، وشفتاها المكتنزتان تتنهدان، ووجنتاها العاليتان تتنهدان، حتى يداها الصغيرتان تتنهدان.. ولم ينظر إلى صدرها البكر ليرى أنه لم يكن يتنهد.. كان يلهث!!

والتقط يدها الصغيرة في كفه الكبيرة، وقال في كلمات متكسرة وكأن شفتيه نسيتا الكلام ولم تعودا تصلحان إلا للقبل:

- سميحة..

ولبت في صوت هامس خجول:

- نعم..

- إنت خلاص بقيتي بتاعتي.. بقينا لبعض.. مش ممكن نفترق

ولا حد يفرقنا.. حانفضل لبعض على طول..

ولف ذراعيه حولها ليضمها إلى صدره، ورفعت عينيها إليه فرأت شفتيه من جديد، فدفعته في رفق قائلة في صوتها الهامس الخجول:

- بس يا صلاح.. كفاية بأه!!

قال وذراعاه لا تزالان حولها:

- عمره ما حيكون كفاية.. و..

وقاطعته في شبه رجاء:

- لازم أروح بأه يا صلاح.. أنا اتأخرت قوي النهاردة.. زمان ماما قلبت عليَّ الدنيا.. وزمان بابا راجع البيت!!

وأرخى ذراعيه من حولها وكأنه تذكر شيئًا قد نسيه.. تذكر أنه مسؤول عنها، ومسؤول عن تأخرها خارج البيت.. وتذكر أنه رجل.. وأنه ملاك!!

وقاما يسيران في طريق العودة..

ولم يتكلما طول الطريق..

كانت تنظر إليه بين الحين والحين.. إلى قامته الطويلة.. أطول مما يجب.. وكأنها تنظر إلى أمل في السحاب!!

وكان ينظر إليها.. وقد بدت صغيرة رقيقة بجانبه.. كأنه ينظر إلى زهرة تفتحت منذ لحظة بين ذراعيه!!

***

والتقى بزميليه في صباح اليوم التالي بفناء المدرسة، وبادره أحدهما صائحًا:

- إنت مالك متقنزح علينا من يوم ما عرفنا البنات بتوع الفنون الطرزية.. تكونش مدكن حاجة ومخبي علينا!!

وأحس بالحرج.. أحس كأن زميله يحدثه في موضوع ليس من حقه أن يتحدث فيه.. وضبط أعصابه وقال متهربًا من السؤال، وهو يفتعل المرح:

- إنتم لسه بتقابلوا البنات دول؟!

- لأ.. تبت خلاص.. تبت من بنات العائلات.. البنت إديتني ميعاد، ورحت قابلتها.. آجي أمسك إيدها.. لأ.. تعالي نقعد في حتة.. لأ.. طيب نداری ورا حيطة.. لأ.. عايزة نفضل ماشيين على طول، تقولشي طابور التدريب العسكري.. قلت يا واد طول بالك، وخدت ميعاد تاني، وفضلت أتحايل على سمير لغاية ما سلفني عربيته..

يا ستي اتفضلي اركبي جنبي.. لأ.. طيب اركبي ورا.. لأ.. أحلفلك مش حاكلك.. لأ.. اخص عليكي بأه ما عندكيش ثقة فيّه.. لأ.. على الأقل لازم يكون عندك ثقة في نفسك.. برضه لأ.. استعملت المنطق والفلسفة، وما خلتش كلمة قريتها في قصة إلا لما قلتها.. ما فيش فايدة.. لأ على طول الخط.. رحت لاعن الدنيا واللي

فيها، ولو ما كناش في الشارع كنت نزلت وأخدتها قلمين.. وسبتها وسقت العربية وأنا صعبان علي أرجعها لصاحبها زي ما أخذتها منه بعد ما زلني يومين لغاية ما ادهالي.. ومن يومها لا شفتها ولا عايز أشوفها..

وسكت قليلًا، وقال وكأنه يقرر حقيقة ثابتة:

- يظهر البت كانت داخلالي جواز!!

وضحك صلاح ضحكة كبيرة، وكأنه ارتاح لفشل زميله في مغامرته، وقال بين طيات ضحكته:

- هو أنت حد يرضى يتجوزك.. يا شيخ اتلهي!!

وقال الزميل الثاني:

- وأنا صاحبتنا فضلت يوماتي تضربلي تليفون.. أتحايل عليها وأبوس في إيديها إنها تقابلني ما فيش فايدة.. قال إيه أبوها يموتها وقال إيه أمها تدبحها.. وأنا ما فيش حاجة تجنني إلا البنت اللي تقول: ماما وبابا.. حتى الكلام يا أستاذ.. تفضل تتكلم نص ساعة، آجي أنا أتكلم كلمتين.. تروح قايلة: عن إذنك بأه أحسن سامعة رجلين ماما جاية، بونسوار.. وتروح قافلة السكة في وشي.. فضلت شهر على كده لغاية ما طهقت وبقيت أسيب البيت كل ما التليفون يضرب.. وضربت مرة واتنين وبعدين بطلت، قلت لازم لقت واحد تاني، وحبيت أتحقق، ضربتلها تليفون ردت عليّ حضرتها بمنتهى القنزحة:

- حضرتك مين؟!

قلت:

- أنا.. قوام كده نسيتي!!

شخطت فيّ:

- حضرتك عايز مين؟!

- عايزك أنت.. هو أنا لي حد غيرك!!

قالت بعين بجحة:

- لازم حضرتك غلطان.. من فضلك اقفل السكة!!

قلت:

- يحرم عليكي الساندويتش والمخلل اللي كلناه سوا!!

راحت قافلة السكة في وشي.. وآدي يا سيدي بنات الأيام دي.. في ذمتي نوسة الرقاصة أشرف منهم، على الأقل لما بتحب تبوس واحد ولا تخرج معاه، بتبوسه وتخرج معاه.. إنما دول، تبقى الواحدة منهم حتخرج عينها على بوسة، وتقولك: بابا وماما!!

ولم يضحك صلاح، إنما اكتفى بأن ابتسم ابتسامة مغتصبة، فقد شعر بأن زميله وهو يذم في بنات العائلات، إنما يجرح فتاته..

وضم قبضتيه بعنف وزم شفتيه حتى لا يثور، وحتى لا يرد على زميله، وحتى لا يكشف سره!!

وسأله الزميل الأول:

- وإنت ما عملتش حاجة في البنت بتاعتك.. ما شفتهاش
ولا اتصلتش بيها؟

وأجاب وهو ينظر إلى الأرض حتى لا تفضحه عيناه:

- لأ.. أبدًا..

وأحس كأن أحدًا لن يصدقه، فاستطرد وهو لا يزال ينظر إلى الأرض:

- أصلي كنت يومها تعبان.. ما كنش ليّه مزاج!!

وضحك زميله قائلًا:

- إنت اللي مالكش في الطيب نصيب.. وعلى فكرة أحب أقول لك إنك اليومين دول دمك تقيل قوي، يظهر إنك تعبان صحيح.. ما تروح لدكتور!!

وقال الثاني:

- وعلى إيه دكتور.. ركك على ليلة واحدة عند صفية حلمي زي زمان!!

وابتسم ابتسامة فاترة..

وتفرق الزملاء..

واختلى بنفسه يسائلها: لماذا نجح هو فيما فشل فيه زميلاه؟

لماذا قبلت سميحة أن تلتقي به وأن يقبلها، أليست من بنات العائلات؟!

ولكنه لم يلمها، ولم يشعر أنها أخطأت يوم رضيت بلقائه ويوم تلقت قبلاته، إنما شعر بغبطة لفشل زميليه في مغامرتيهما فقد أقنعه هذا الفشل بأن ما بينه وبين سميحة لابد أن يكون أكثر من مغامرة، وإلا لفشلت مغامرته هو الآخر!!

ومر أمام بيتها في اليوم التالي ثم انحرف في الشارع الجانبي، وسار طويلًا دون أن يشعر بوقع خطواتها وراءه، ولا بيدها الصغيرة تضعها في كفه الكبيرة..

وعاد أدراجه، ومر أمام بيتها، ثم انحرف في الشارع الجانبي ولكنها لم تلحق به..

ربما شغلها شاغل.. ربما مرض والدها أو والدتها، أو ربما كانت تستقبل بعض ضيوف العائلة..

ومر في ثاني يوم ثم انحرف في الشارع الجانبي.. فلم تلحق به أيضًا!!..

وثالث يوم..

ورابع يوم..

ماذا حدث؟ لماذا لم تتصل به في التليفون لتنبئه بما حدث؟ هل هي مريضة؟ وكيف يطمئن عليها؟!

وكاد يجن..

وعاد يمر في كل يوم من أمام البيت ثم ينحرف إلى الشارع الجانبي، وأصبح يرفع عينيه باحثًا عنها في

النوافذ والشرفات.. ولكنه لم يرها ولم تلحق به..

وأهمل كل شيء في حياته.. أهمل نفسه، وأهمل ثيابه، وأهمل مدرسته، وأهمل ليله فلم يعد ينامه، وأهمل نهاره فلم يعد يعيش فيه..

أصبح قطعة من العذاب القلق، تمر كل يوم في شارع السبق بمصر الجديدة وتتطلع إلى النوافذ والشرفات..

وبعد خمسة عشر يومًا كاملة رآها..

رآها منحنية على سور شرفتها.. كالوردة الذابلة فوق عود يابس..

وتعثرت خطواته حتى عجز عن أن يخطو..

ووقف برهة عابرة استجمع فيها قواه، ونظر إليها نظرة حيرى متسائلة.. ثم استمر في سيره إلى أن انحرف في الشارع الجانبي..

وسار خطوات وكله آذان متلهفة..

وسمع وقع خطواتها من ورائه..

ثم أحس بيدها الصغيرة تلمس كفه الكبيرة، فالتقطها في لهفة مجنونة وضغط عليها بقسوة كأنه لن يتركها أبدًا، ثم التفت إليها وفي عينيه نظرة يمزقها الغضب، وصاح هامسًا:

- كنت فين؟!

وواجهته بوجه نحيل منهك، وعينين مقرحتين غاض منهما الدمع، وشفتين ترتعشان ضعفًا.. وقالت في صوت

لا يكاد يبين:

- استنى عليّ يا صلاح لغاية ما نقعد..

وسارا إلى موضعهما فوق الرمال، وفي قلب كل منهما حديث طويل..

ووصلا إلى هناك، وهو لا يزال قابضًا على يدها في قسوة كأنه يخشى أن تفر منه.. والتفت إليها مرة ثانية وهو لا يزال غاضبًا، وأعاد عليها نفس السؤال:

- كنت فين؟!

وتمهلت قليلًا حتى جلست على الرمل، وجلس بجانبها وهو
لا يزال قابضًا على يدها، ثم قالت في صوت ضعيف:

- كنت خايفة..

وارتسمت في عينيه نظرة بلهاء، كأنه لا يفهم، وقال في تساؤل عنيف:

- خايفة من إيه؟!

وأحنت رأسها، وقالت وهي تنظر إلى الرمال كأنها تعد حباتها، وصوتها تنهدات:

- خايفة أحبك أكتر من كده!!

وبدا كأنه فوجئ بقول لم يتوقعه، ثم هدأت المفاجأة فلانت نظرات عينيه، وارتخت عضلات وجهه الغاضب، وانفرطت أصابعه القاسية من فوق يدها الصغيرة، ونظر

إليها كأنه وجدها بعد أن ضاعت منه وقال وكلماته تقبل وجنتيها:

- أنا عمري ما حاقدر أحبك أكتر من كده!

ومال إليها بوجهه..

وأبعدت عنه وجهها في رفق قائلة:

- صلاح.. خلينا عاقلين، لازم نفكر إحنا رايحين فين.. إيه آخرة حبنا؟

وقال وهو لا يزال يقرب إليها وجهه:

- الحب مالوش أول ولا آخر.. الحب حب وبس!!

قالت وكأنها تحاول أن تفتح عينيه على عالم مجهول:

- ده صحيح.. ولكن مش كفاية أفضل أحبك على طول..

يا ترى الناس حتسبنا نحب بعض.. يا ترى بابا وماما حيسبوني أحبك طول عمري.. أنا فكرت كتير يا صلاح.. كنت حاتجنن من كتر التفكير.. ما لقيتش طريقة إلا أني أنتحر أو نسيب بعض، والاتنين ألعن من بعض.. ما أقدرش أنتحر علشان خاطر ماما، ولقيت إن ما بقاش إلا إننا نسيب بعض قبل ما أحبك أكتر من كده وما أقدرش أسيبك!

وتراجع عنها وقال ملهوفًا كأنه بدأ يفقدها مرة ثانية:

- لكن أنا ما أقدرش أسيبك!

- لازم نستحمل يا صلاح.. أنا استحملت كتير الجمعتين اللي فاتوا.. فضلت أعيط لما دموعي نشفت، وحرمت على نفسي إني أقابلك، بقيت أبص لك من ورا الشيش كل ما تفوت من قدام البيت، وبعد ما أشوفك أفضل دايرة في أودتي زي المجنونة.. واضطريت أعمل نفسي عيانة علشان ماما ما تلحظش، لدرجة إنهم كانوا حيعملوا لي عملية المصران الأعور من غير ما يكون المصران له ذنب.. الآخر، ما قدرتش أستحمل أكتر من كده.. وجيتلك علشان تساعدني.. تساعدني أني أسيبك وأنساك!!

وصمت طويلًا يفكر، ثم قال فجأة:

- سميحة.. ما فيش طريقة إلا إننا نتجوز!

ورفعت إليه عينيها دهشة:

- نتجوز!! نتجوز إزاي!!

- نهرب مع بعض.. أنا لي واحد صاحبي من الزقازيق ساكن لوحده، نروح نقعد عنده ونجيب المأذون يجوزنا..

ونظرت إليه طويلًا، ثم أرخت أهدابها وقالت في صوت ضعيف:

- يهون عليك تعمل فيّه كده يا صلاح.. ترضى لأختك سعاد إنها تعمل كده؟

وأحس كأن جرحًا عميقًا فتح في صدره، وقال كأنه يدافع من نفسه:

- لو أختي لقت واحد يحبها زي ما باحبك، لازم تعمل كده!!

- وماما وبابا.. أنت عايزني أموتهم!

وقال منكسًا رأسه:

- أمال نتجوز إزاي؟!

- زي الناس ما بتتجوز.. كلم بابا!!

ونظر إليها وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

- أكلمه أقول له إيه.. أقول أنا تلميذ في سنة خامسة ثانوي وأبويا لسه بيصرف عليّه.. وعايز أتجوز بنتك..

- كلمه ومالكش دعوة.. أنا حاقولهم إني باحبك، وإني حاموت نفسي إذا ما اتجوزناش..

- حيفتكرونا إحنا الاتنين عيال.. وحيضحكوا علينا!!

وقالت وهي تتنهد:

- يبقى مش فاضل إلا إننا نسيب بعض!

وقفز واقفًا على قدميه وصاح غاضبًا:

- إيه اللي كل ساعة تقوليلي نسيب بعض.. قولي إنك ما بتحبنيش واخلصي!!

وقالت وهي لا تزال جالسة تحت قدميه:

- كل ده وما بحبكش يا صلاح؟!!

وطفرت من عينيها الدموع..

ورأى الدموع فانهار بجانبها، وضمها بين ذراعيه، وقال في كلمات متهدجة متلاحقة وهو يجفف دموعها بشفتيه:

- مش ممكن نسيب بعض يا سميحة.. احنا متجوزين من يوم ما تقابلنا.. متجوزين قدام ربنا.. ربنا هو اللي جمعنا ببعض، وهو اللي خلانا نحب بعض، وهو وحده اللي يجوزنا لبعض.. بصي للسما
يا سميحة وقولي: زوجتك نفسي يا صلاح.. بصي!!

ولم تنظر إلى السماء، وظلت مع دموعها.. فرفع وجهها برفق، وعاد يقول في إلحاح:

- بصي لربنا يا سميحة.. تأكدي أنه معانا..

ونظرت إلى السماء من خلال دموعها، وقالت في صوت هامس يقطعه نشيجها:

- زوجتك نفسي يا صلاح!!

ثم أخفت رأسها في صدره، وارتفع صوت نشيجها!!

* * *

وعاد إلى بيته وفي صدره فرحة هادئة..

وألقى بنفسه فوق فراشه وهو لا يحس من الدنيا إلا بنبضات قلبه..

ونظر إلى الوسادة التي بجانبه.. فرآها بعين خياله.. رأى عينيها الواسعتين.. وشفتيها المكتنزتين.. ووجنتيها العاليتين.. وشعرها الأسود.. كأستار الليل..

وأغمض عينيه، وأخذ الوسادة بين ذراعيه، ولصق بها شفتيه..

وقبّل الوسادة الخالية!!

3

وذهب للقائها في الموعد التالي وهو مستريح القلب، هادئ العاطفة.. كأن المشاكل قد انتهت من حياته.. وكأن السحاب قد انقشع من سمائه وكأنه زوج يعود إلى زوجته في اليوم التالي لليلة الزفاف!

وجلسا في مكانهما من الصحراء..

وأخرج من جيبه دبلتين فضيتين، ثم أمسك بيدها اليسرى ووضع إحدى الدبلتين في إصبعها..

ونظرت إلى الدبلة وتساءلت مبتسمة:

- إيه ده يا صلاح؟!

وأجاب وهو يلف ذراعه حول خصرها:

- دي دبلة الجواز.. إحنا مش اتجوزنا قدام ربنا!!

ولم تبد عليها فرحة.. وظلت ابتسامتها معلقة فوق شفتيها كأنها
لا تستطيع أن تجاربه في خياله، ولا تستطيع أن تحرمه وتحرم نفسها من هذا الخيال..

وعاد يقول وهو يضغطها إليه:

- دول دبل كانت نينة جابتهم معاها من الحجاز.. من بيت الله.. بصي مكتوب إيه عليها..

وخلعت دبلتها ونظرت داخلها وقرأت:

- «صلاح 15 - 6»..

وكان تاريخ أول لقاء لهما..

وأراها دبلته وقرأت عليه اسمها ونفس التاريخ..

وتنهدت وقالت وهي ترفع وجهها إليه:

- كان نفسي الدبل دول يبقوا دهب!!

قال وشفتاه تنظران إلى شفتيها:

- بكره يبقوا دهب يا سميحة.. زي ما اتجوزنا قدام ربنا حانتجوز قدام الناس.. خلي عندك ثقة في الله وفي حبنا، أنا حاسس إني أقوى بحبي من الدنيا كلها.. إن ما فيش مخلوق يقدر ياخدك مني.. مش ممكن يا سميحة. ياخدوكي مني إزاي!

وقالت في صوتها الضعيف:

- أنا خايفة يا صلاح..

وجذب رأسها في رفق ووضعه فوق صدره، وقال وهو يمسح شعرها الأسود بكفه الكبيرة:

- طول ما أنا جنبك ما تخافيش..

وانحنى بشفتيه يقبل شعرها الأسود.. ثم تسللت شفتاه بين خصلات شعرها حتى وصلت إلى جبينها.. ثم رفع وجهها إليه، واستقرت الشفتان فوق الشفتين..

ولم يعودا في حاجة إلى حديث..

وتجمع عمرها كله في قبلة لم تنته، وكأنها تتنفس من أنفاسه وكأنه يتنفس من أنفاسها..

وعاد إلى بيته ليرقد فوق فراشه.. وليراها بعين خياله فوق الوسادة الخالية..

* * *

ومرت به الأيام..

كان قد أقنع نفسه تمامًا أنه زوجها.. فكان يراها دائمًا معه، وكان يعيش كل دقيقة في عمره من أجلها.. كان يراها عندما يفتح دولاب ملابسه.. فينظمه بذوقها، وكان يراها عندما يكتب دروسه فيتعمد تحسين خطه وكان يكتب خطابًا غراميًا لها، وكان يراها وهو سائر في الطريق فيتأنق في مشيته، ويراها وهو بين زملائه فيترفع عن مباذلهم ويترفع عن أن يبادلهم ألفاظهم الجارحة، وكان يراها دائمًا فوق الوسادة الخالية عندما يؤوي إلى فراشه، فيحتضن الوسادة ويبقيها في أحضانه طول الليل..

وقد اعتقد أنه أصبح مسؤولًا عن نفسه، ما دامت نفسه قد أصبحت لها.. خلق من نفسه رجلًا كاملًا، جادًا دائمًا، سعيدًا دائمًا، طيبًا دائمًا.. وكأن الحب قد فاض عن حاجته منه فأخذ يوزعه على كل من حوله.. أصبح يحب أباه وأمه كما لم يحبهما من قبل، وأصبح يحب شقيقته ويشعرها بحبه كما لم يشعرها به أبدًا، وأصبح

يحب زملاءه كأنه أخ كبير لهم وينظر إلى لهوهم نظرة طيبة حنون كأنه يقدر نزوات الشباب!!

وقال لها يومًا ضاحكًا:

- أنا أصبحت محتار، يا ترى باحبك إنت أكتر ولا المخدة!

وقالت وهي تلقف ضحكته بضحكها:

- طبعًا المخدة!

- لك حق.. على الأقل المخدة بتبات في حضني كل يوم، إنما إنت ماباشفكيش إلا يومين في الجمعة، وكل مرة ما الحقش أتهنى بيكي..

وقالت جادة كأنها تذكرت شيئًا:

- إنت بتشخر وإنت نايم؟!

- أنا!! أبدًا، عمري ما باشخر؟!

- كداب.. إمبارح طول الليل كنت بتشخر لدرجة أني ما كنتش عارفة أنام، وغلبت أعدل رقبتك!!

وضحكا طويلًا، حتى ضحك كل منهما بين شفتي الآخر.

هكذا كانا يعيشان في خيال..

كانت هي الأخرى تنام والوسادة الخالية بين أحضانها.. تلف ذراعيها حولها كأنها تلفها حول عنقه، وتخفي شفتيها بين طياتها كأنها تخفيهما بين شفتيه، وتضمها إلى صدرها كأنها تضمه، ثم تمد ساقيها تحت

الغطاء كأنها تبحث عن ساقيه، وتتقلب بجسدها فوق الفراش عسى أن تصطدم بجسده.. ثم يشتد بها الحنين فتتقلص أصابعها فوق الوسادة كأنها تمزقها، وينقلب الحنين أحيانًا إلى عذاب فتثور وتعض الوسادة بأسنانها، ثم ترفعها وتلقي بها بعيدًا على الأرض، وتبكي..

وتنتهي من بكائها فتأخذ الوسادة مرة ثانية بين أحضانها كأنها تعتذر لها.. ثم تنام..

كانت تجاريه في خياله، ولكنها لم تكن مثله في قدرته على التخيل.. كانت تمل الخيال سريعًا وتشعر بحنين عنيف نحو الحقيقة!

وقد مر عام، نجح خلاله في الامتحان والتحق بكلية التجارة.. وقد أثار نجاحه ضجة بين زملائه وأفراد عائلته، فلقد كانت المرة الأولى في حياته التي ينجح فيها من أول دور، والمرة الأولى التي ينجح فيها بتفوق..

ولم يهمه نجاحه إلا بقدر ما يقربه من أمله الوحيد.. أن يتقدم طالبًا الزواج من سميحة أمام الناس، كما تزوجها أمام الله.. وكان قد وضع خطة مرسومة: سيتقدم إلى والدها عندما ينتقل إلى السنة الثانية، ثم تدوم فترة الخطوبة عامين، ينال بعدها البكالوريوس، ثم يتزوج..وكانت هذه الخطة واضحة في ذهنه مؤكدة التحقيق حتى لم يخطر على باله أبدًا أن يعترضها القدر ليغير معالمها..

ودق جرس التليفون في بيته..

وقالت سميحة ملهوفة:

- صلاح.. لازم أشوفك دلوقت، حالًا..

ووضعت السماعة..

وارتدى ثيابه بسرعة، وقد خامرته كل الخواطر إلا خاطر واحد، ومر أمام بيتها ثم انحرف إلى الشارع الجانبي، وسمع وقع قدميها من ورائه سريعة مرتبكة كأنها تجري خائفة، ووضعت يدها الصغيرة في كفه الكبيرة، فأحس بها باردة كالثلج، فالتفت إليها يسألها في لهفة:

- خير.. حصل إيه؟!

وترددت قليلًا، ثم وقفت ورفعت إليه عينين مذعورتين وقالت كأنها تنزع نصلًا من صدرها:

- حيجوزوني!!

قال كأنه يتلقى النصل في صدره:

- حيجوزوكي!! إزاي؟!

- ما فيش فايدة.. الدور ده بابا مصمم وماما موافقة..

قال وكأنه يتمالك نفسه:

- هو كان فيه دور قبل كده؟!!

- كتير يا صلاح.. وما كنتش برضى أقولك عشان ما أزعلكش، كان كل واحد أطلّع فيه عيب وأفضل أكرّه

فيه ماما لغاية ما تأثر على بابا ويرفضه.. إنما الدور ده ما فيش فايدة.. متهيأ لهم أنه عريس من السما!!

قال وقد بدا في عينيه بريق عناد:

- السما ما بعتتش حد لك إلا أنا.. إذا كان بيتهيأ لهم إن فيه حد تاني بعتته السما يبقوا غلطانين..

قالت كأنها لم تعد تطيق كلامه:

- ما تجننيش يا صلاح.. مش وقته دلوقت تفكر في السما.. المهم، حنعمل إيه؟!

- ترفضي تتجوزي طبعًا!!

- ما فيش فايدة، حاولت كتير!!

- ما يقدروش يجوزوكي غصب عنك!

- يقدروا يا صلاح.. أنا مش حرة بنفسي، أنا ملك إيديهم!

- وأنا؟!

- أنا أقدر أضحي بيك وساعتها حاضحي بنفسي.. إنما ما أقدرش أضحي بماما وبابا..

- وهما.. إزاي يضحوا بيكي؟!

- هما ما يعرفوش حاجة.. فاكرين إنهم بيعملوا لمصلحتي وسعادتي..

- قوليلهم على كل حاجة..

- أقول لهم إيه!! أقول لهم إني باحب واحد بقالي سنة وبا أقابله كل يوم.. إنت عايز بابا تجيله سكتة قلبية ولّا ينشل..

- أنا أقول له.. أقول له أنا عايز أتجوز بنتك، وإن بنتك بتحبني وأنا باحبها..

- ما فيش طريقة غير كده؟!

- ما فيش..

- طيب تعال اطلبني منه، بس ما تقولش إننا بنحب بعض.. لحسن ده عنيد وصعب قوي، وأنا حاتحايل على ماما لغاية ما تأثر عليه..

- إنما...

وقاطعته وهي تسحب يدها من يده:

- أنا مضطرة أرجع البيت حالًا.. أحسن فيه ضيوف جايين لنا..

* * *

واتجه في خطى سريعة نحو بيته وقد بدا في عينيه عزم أكيد كأنه قرر شيئًا خطيرًا..

ودخل إلى البيت يبحث عن أبيه، ثم انحنى يقبل يده، وقال وعيناه منكستان في الأرض وأنفاسه لا تزال تلهث:

- أنا حاطلب منك طلب كبير يا بابا..

ونظر إليه أبوه نظرة فاحصة كأنه يحاول أن يقرأ ما في صدره، وقال يحاول أن يخفف العبء على ولده:

- غالي والطلب رخيص يا سي صلاح.. خيرا

قال وكأنه يستجمع شجاعته:

- أنا قررت أتجوز!

ودهش الأب، ولكنه تمالك نفسه حتى لا تبدو عليه دهشته، وقال وهو لا يزال محتفظًا بابتسامته:

- على بركة الله يا ابني.. واخترت حد من اللي نعرفهم؟!

- ما أظنش تعرفهم يا بابا..

- يا ترى يبقوا مين دول.. أنا عارف إنت ذوقك كويس، وطول عمرك تقع واقف!!

- بنت عمي إبراهيم بك فوزي..

- إبراهيم فوزي بتاع وزارة الأشغال؟

- أيوة..

- ده راجل عظيم.. يظهر إنك تعرفه كويس، لدرجة إنك بتقول له يا عمي!!

- باقول له يا عمي علشان خاطر بنته!

وصمت الأب قليلًا، وقال كأنه يفاتح ابنه في موضوع لم يجر من قبل بين أب وابن:

- بتحبها؟!

واحتقن وجه الفتى وقال وهو يتنهد:

- أيوة..

- ومستعجل ليه على الجواز؟!

- لأنهم حيجوزوها واحد تاني..

واعتدل الأب في جلسته ونظر إلى ابنه نظرة إشفاق، ثم تنحنح وقال كأنه مضطر أن يقسو على ولده:

- ما أظنش إنك بتحبها قوي يا صلاح!

وصرخ صلاح:

- باحبها جدًا.. ما أقدرش أعيش من غيرها.. مش ممكن أسمح لواحد تاني أنه يتجوزها!!

- لو كنت بتحبها ما كنتش تقول الكلام ده.. لو كنت بتحبها كنت نظرت لسعادتها هيه مش لسعادتك أنت.. ما تنساش إنك لسه تلميذ، وما تقدرش تفتح بيت.. ما تقدرش تشعرها بإنك راجل تقدر تحمل مسؤوليتها ومسؤولية بيتها.. أنا شخصيًا ما عنديش مانع إنك تتجوز وأصرف على عروستك زي ما باصرف عليك.. إنما يا ترى هيه حتبقى سعيدة بالشكل ده؟!

وقال صلاح وكأنه يتحدى نفسه:

- أيوة حتبقى سعيدة.. أنا متأكد أنها بتحبني زي ما باحبها!!

- فكر شوية يا صلاح يا ابني.. أنا حاسيبك تفكر، وبعدين نتكلم تاني!

وقام صلاح إلى غرفته وهو لا يستطيع أن يفكر، فقد كانت في رأسه زوبعة خيّل إليه خلالها أن والده يضن عليه بالزواج حتى

لا يكلف نفسه مؤونة الصرف على زوجته.. وخيل إليه خلالها أن يهجر هذا البيت ويبحث لنفسه عن عمل يستطيع به أن يعول نفسه ويعول حبيبته.. لماذا لا ترضى به عاملًا في جراج أو سائقًا لسيارة تاكسي؟ ألا تحبه!!

ودق جرس التليفون كأنه دوامة هائلة من الهواء تساهم في الزوبعة التي تكاد تقتلع رأسه..

وسمع صوت نشيج سميحة، وسقطت دموعها في أذنيه، وقالت وكلماتها تتكسر فوق شفتيها:

- خلاص يا صلاح.. قروا الفاتحة!

وسمع صوت سماعة التليفون تسقط من يدها، فصرخ كالمجنون:

- آلو.. آلو..

ولم يرد أحد..

وأدار رقم تليفونها بيد مرتعشة، وسمع صوت رجل يرد عليه، فأعاد السماعة إلى مكانها في قوة كأنه يلقي بها في وجه الرجل..

وأخذ يدور في حجرته كالثور الهائج يضرب قطع الأثاث بقدميه، ويضرب الحائط بقبضتيه، وكلمات

سميحة تلاحقه كأنها تلطم أذنيه: «خلاص... قروا الفاتحة»!!

ماذا يفعل الآن؟ يجب أن يتخذ عملًا حاسمًا قبل أن تتطور الفاتحة إلى خطبة، والخطبة إلى كتب كتاب، وكتب الكتاب إلى زفاف!

وقرر أن يقتل والدها!!

إنه هو الذي يقف في وجهيهما.. هو الذي يزوجها للآخر.. لو لم يكن موجودًا لأصبحت له!!

ولكنها تحب والدها!

إذن يقتل هذا الآخر الذي تجرأ على أن يطلبها للزواج.. بأي حق يتزوجها؟! إنه لص.. إنه قاتل يريد أن يقتلها ويقتله!

ترى ما شكله..

لابد أنه عجوز.. موظف في الدرجة الثالثة مثلًا، مترهل الجسم يتقدمه كرش ويضع على رأسه طربوشًا ويحمل تحت إبطه جريدة الأهرام، وفي يده منشة ذات مقبض من العاج.. هذا الصنف من الرجال الذي يعود دائمًا إلى بيته يحمل بطيخة أو اقتيْ موز!!

ليقتله إذن.. فهو لا يستحق الحياة حتى لو لم يتزوج سميحة!

ولكن قد يأتي غيره..

إذن لينسف البيت كله بعد أن ينقذ منه سميحة.. ساعتها ستخلص له، لن يكون لها أحد غيره، ولن يوجد إنسان يحول بينها وبينه.. و..

وقضى ليله بين هذه الأفكار السوداء.. لا ينام ولا يهدأ، وينظر إلى الوسادة الخالية فلا يرى رأسها فوقها.. كأنها تركته وذهبت لتنام على وسادة رجل آخر!!

وحاول في الصباح أن يراها أو يتصل بها، فلم يستطع..

لم ترد على التليفون، ولم تلحق به عندما مر من أمام بيتها، كما تعودت أن تلحق به دائمًا..

وقضى أيامه يبحث عنها دون أن يجدها كأنها اختفت من الحياة.. من حياته!

أين هي؟!

هل نسيته؟!

هل سعدت بجانب الرجل الثاني حتى أنستها السعادة حبهما؟!

لماذا لا تقول له ما يحدث لها؟ لماذا تتركه هكذا يتخبط بين أفكاره السوداء؟!

هل يقتلها هي ويقتل نفسه، ليتخلص منها ومن نفسه؟!

وكان يمر كل يوم أمام بيتها في نفس الموعد.. إنه لم يقطع الأمل.. إنه لن يعيش إذا انقطع به الأمل..

ورآها أخيرًا..

ووقف مشدوهًا جاحظ العينين مرتعش الأطراف، كأنه مدمن مخدرات افتقد المخدر الذي يعيش عليه..

كانت بصحبة شاب أنيق الملبس، وسيم الوجه، ممشوق العود، تشع من وجهه رجولة طيبة، وترسم قسماته شخصية قوية محببة.. وكانت تضحك كأن كل ما فيها يضحك.. عيناها تضحكان، ووجنتاها تضحكان، وشفتاها تضحكان، وقلبها يضحك..

ورأته في وقفة المذهول.. فكفت عن الضحك..

وحولت عينيها سريعًا عنه، واتجهت بهما إلى الشاب الذي يرافقها.. ثم اختفى الاثنان داخل سيارة!

وسار إلى غرفته محطمًا ذليلًا، وألقى بنفسه على فراشه كأنه يلقي عن نفسه جسدًا لم يعد في حاجة إليه!

هل يستسلم لقدره؟

ترى من كان معها؟

هل هو أحد أقاربها؟

لا يمكن أن يكون هذا هو الرجل الذي تقدم لخطبتها! إن هذا الصنف من الشبان لا يتزوج!!

وأحس بكل ما فيه يتمزق.. قلبه يتمزق، ورئتاه تتمزقان، وأمعاؤه تتمزق.. وأحس بأعصابه تلتهب وتتقد نارًا.

وصرخ من الألم..

وضرب الوسادة الخالية بكفه الكبيرة كأنه يكتم أنفاس شبح مخيف..

هل يسكت على هذا العذاب؟

لا..

وأحس بالثورة تتجمع في صدره، وقام يدير قرص التليفون، ثم يلقي بالسماعة إلى مكانها عندما يسمع صوت رجل..

ولم ينتقل من جانب التليفون.. لم يذهب إلى كليته ولم يخرج من البيت، إنما ربض بجانب التليفون كأنه حيوان عنيد حبيس.. وأخذ يدير القرص كل ساعة، وكلما ضاقت أنفاسه في صدره..

وأخيرًا لم يطق مزيدًا من الصبر، فقال للخادم الذي يرد على التليفون، وهو يحاول أن يتمالك نبرات صوته:

- سميحة هانم موجودة؟!

- نقول لها مين يا افندم؟

- قول لها سعيد الجزمجي!

وكان يعلم أنها تصنع أحذيتها عند رجل اسمه سعيد..

وجاء صوت سميحة كقطرات الندى الذي تتساقط على الأرض الجافة.. وسكت قليلًا كأنه يبتلع صوتها في قلبه، وسمعها تردد:

- آلو.. آلو..

وانطلق منفجرًا كأنه تذكر كل عذابه مرة واحدة:

- مين اللي كان معاكي ده؟!

وسكتت، ثم قالت في صوت خيّل إليه أنه صوت بارد:

- إزيك يا صلاح..

وعاد يصرخ متجاهلًا تحيتها:

- مين اللي كان معاكي؟

- ده فؤاد..

- فؤاد مين؟

- خطيبي الدكتور فؤاد عزمي!

وسكت قليلًا كأن شيئًا ثقيلًا قد سقط على رأسه، ثم قال في صوت منكسر:

- يظهر إنك فرحانة بيه قوي!

- أنت إزيك يا صلاح!!

- أنا لازم أشوفك.. بأي شكل لازم أشوفك!

- يا ريت والنبي.. ما أقدرش.. كل يوم الصبح بانزل مع ماما البلد ما ترجعش إلا بعد الظهر..

- بتجهزي؟!

قالت في صوت خجول كأنها عروس تجيب على سؤال للمأذون:

- أيوة!!

قال غاضبًا:

- أظن قبل ما تفتحي صفحة جديدة في حياتك لازم تصفي الصفحة القديمة!

- إنت عارف، أنا ما ليش ذنب في ده كله..

- لك ذنب ما لكيش، المهم لازم أشوفك، أنا مش لعبة ترميها وتكسريها بعد ما تضايقي منها..

- ما تقولش كده يا صلاح.. حرام عليك!

- كلمة واحدة.. لازم أشوفك..

- ما أقدرش.. وأنت عارف إني ما أقدرش..

- إنت ما تعرفينيش يا سميحة.. أنا مجنون!!

- أشوفك إزاي بس؟!

- بكره حا افوت من قدام البيت الساعة خمسة.. تحصليني زي العادة.. ولا نسيتي؟!

- بس يا صلاح..

- أورفوار..

وأعاد السماعة إلى مكانها..

ووضع رأسه بين كفيه الكبيرتين.. وأخذ يفكر.. وأحس شيئًا جديدًا في تفكيره.. لقد أصبح شريرًا.. سيرتكب أي جريمة وكل الجرائم.. لقد فقد كل آماله، حتى هي قد تخلت عنه وتعلقت بخطيبها.. ماذا بقي له؟ لا شيء!

وتعجب من نفسه، فقد كان يفكر في الجريمة تفكيرًا هادئًا منتظمًا.. سيقابلها ويذهب بها إلى مكانهما في الصحراء.. لا أحد هناك

ولا صوت، إنه أصلح مكان لارتكاب جريمة.. ولكنه لن يرتكب جريمة.. إنه سيأخذ حقًا له.. سيغتصب حقًا كان يدخره ليوم زواجه بها.. ثم يعيدها إلى بيتها كالطبق المشروخ، يعيدها دون أن يبقي حقًا فيها لرجل آخر.. ولن يرضى أي رجل بعد ذلك أن يتزوجها.. وسيضطر أبوها إلى مداراة الفضيحة فيزوجها له..

إنها جريمة كاملة..

لا.. لقد اتفقنا إنها ليست جريمة، إنها مجرد اغتصاب حق!!

ونام يقلقه نحيب ضميره!

وذهب إليها في اليوم التالي.. ومر أمام بيتها يدق الأرض بقدميه كأنه يسحق بهما شيئًا حقيرًا في نفسه.. وتطل من عينيه نظرة ثابتة لا تتحرك ولا تتلفت، من بين أهداب واقفة لا تهتز كأنها تخشى إن اهتزت أن تسقط من فوق جفونه..

وانحرف في الشارع الجانبي، وسمع صوت خطواتها تلحق به، إلى أن حاذته ولكنها لم تمد يدها الصغيرة لتضعها في كفه الكبيرة.. وحرك كفه باحثًا عن يدها فلم يقبض إلا على هواء.

وسارا بضع خطوات، ثم رفعت وجهها إليه تسأله وكأنها تتعجله:

- عايز إيه يا صلاح؟!

قال في اقتضاب:

- استني لما نوصل الحتة بتاعتنا..

وكانت الدماء قد بدأت تتصاعد في وجهه حتى أطلت من عينيه وبدا كالمخنوق، وكانت قسماته تبدو قاسية شريرة كأنه مجرم اعتاد الإجرام..

كانت فكرة الجريمة تملأ رأسه، وكان يستجمع شجاعته لتنفيذها.. وكان يسير صامتًا في خطى واسعة سريعة، كأنه يتعجل الشيطان الذي يقهقه في صدره..

وقالت في صوت كأنه يرتجف خوفًا:

- طيب مش نتكلم واحنا ماشيين؟!

ولم يتكلم، وأوسع من خطاه السريعة حتى كادت تعدو لتظل بجانبه..

ووصلا إلى مكانهما من الصحراء..

ووقف صامتًا كالمارد الرهيب، وقد بدأت غمامة سوداء تغشى عينيه..

ووقفت بجانبه، صغيرة رقيقة كل شيء فيها يتنهد برقة وضعف، تنتظر منه أن يتكلم..

ولما طال صمته، قالت كأنها تتوسل إليه:

- بس مش تقوللي عايز إيه يا صلاح!

وأدار إليها وجهه فجأة وقبض على كتفيها بكفيه في قسوة، ثم قال في صوت أجش:

- عايزك أنت!!

ثم انقض بشفتيه فوق شفتيها كأنه يريد أن يمزقهما عن وجهها..

واتسعت عيناها ذعرًا، وصرخت وهي تحاول أن تدفعه عنها بذراعيها الضعيفتين وتخلص شفتيها من شفتيه القاسيتين:

- إيه ده يا مجنون!!

قال بصوته المحموم الأجش وهو يلقي بها على الأرض:

- إذا كنت مجنون.. إنت السبب.. إنت اللي جننتيني!

وأخذت تضرب صدره بيديها الصغيرتين، وتحاول أن تتملص من جسده الثقيل، بينما بدأت كفاه تمتدان إلى أطراف ثوبها..

وانهمرت دموعها، وهي لا تزال تضرب بذراعيها في الهواء، وتخدش وجهه بأظافرها.. والمجنون لا يزال في حمَّى جنونه..

وفجأة..

تصلبت كفاه المجنونتان، وتوقفت أنفاسه اللاهثة، وتعلقت عيناه بيدها.. يدها اليسرى!!

وألقى بنفسه من فوق جسدها، ثم جلس بجانبها ولا تزال ملقاة على الأرض مضطربة الأنفاس كحمامة لا تصدق أنها أعفيت من الذبح.. وأمسك بيدها اليسرى ونظر إليها طويلًا نظرة بلهاء، كأنه تذكر شيئًا جميلًا حطمه بيديه..

كانت تضع دبلته في أصبعها..

الدبلة التي تحمل اسمه وتاريخ أول لقاء لهما..

الدبلة التي تزوجها بها أمام الله.. زواجًا عذريًا طاهرًا كحبهما..

ونظرت معه إلى الدبلة التي في أصبعها ثم جذبت يدها من يده، وقالت وهي تقوم من على الأرض:

- أنا كنت حالفة أني ما اخلعش الدبلة دي من إيدي حتى بعد ما اتجوز.. إنما يظهر أني لازم اخلعها دلوقت، علشان ما تفكرنيش باليوم ده..

وخلعت الدبلة من يدها.. ووضعتها في كفه دون أن يمد كفه إليها..

ووقفت تنظر إليه برهة، نظرة أقرب إلى الرثاء..

وأدارت ظهرها له وأخذت تبتعد عنه، بينما يتبعها بنظرته البلهاء التي لم تغادر عينيه بعد..

واختفت كأنها اختفت إلى الأبد..

وأخفى وجهه بكفيه..

ولم يبك.. إنما أحس أن كل شيء فيه تحطم حتى الشيطان الذي عاش معه يومًا وليلة، تحطم في صدره..

* * *

وأتى المساء وهو لا يزال جالسًا في مكانه من الصحراء.. المكان الذي شهد حبه، والذي كاد يلوثه بجريمته..

وقام يترنح في مشيته.. ولم يذهب إلى بيته، إنما قادته قدماه إلى الحانة التي تعود أن يتردد عليها في أيام الخميس قبل أن يحب، وقبل أن يجعل منه الحب رجلًا كاملًا..

وشرب كثيرًا.. وكان يتمنى مع كل كأس أن يملأها بدموعه.. ولكن الدموع كانت أقسى عليه من الخمر، فلم تلب نداءه. وعاد إلى بيته في آخر الليل..

وألقى بنفسه على فراشه قبل أن يخلع ملابسه..

ودفن أنفاسه المخمورة في الوسادة الخالية!!

4

.. وأصبح ليله خمرًا.. ونهاره عذابًا..

.. وأصبح الحب الذي خلق منه رجلًا كاملًا، معولًا يهدّ كل ما فيه حتى لم يبق منه شيء لم يهدم..

كان يغرب كل مساء في حانة، ويشرق كل صباح بين أحضان امرأة رخيصة، وكان مجنونًا في غروبه وشروقه.. يعبّ من كأسه حتى يكاد يعتصرها بين شفتيه، ويلحق الكأس بالأخرى حتى كأنها دائمًا كأس واحدة لا تتغير طوال الليل.. ثم يثير معركة بينه وبين أصحاب الكؤوس، يصرخ فيها كما شاء له الصراخ، ويضرب بقبضتيه القويتين كل من يعترض على صراخه.. ثم يحس بعد ذلك أن قواه قد تجددت، فينتقل إلى «صالة» من صالات الدرجة الثالثة يتيه فيها بشبابه وتلاحقه عيون الراقصات أو أشباه الراقصات، ثم يسقط على واحدة منهن ليصحبها إلى بيتها حيث ينفث عذابه في جسدها، ويشرق بين أحضانها في الصباح كشمس المناطق الباردة، ذابلًا، كالحًا، مصفرًا.. ليس فيه من معنى الشروق إلا انتهاء الليل..

واختار من بين أشباه الراقصات واحدة يخصها بلياليه.. امرأة ضعيفة هزيلة في عينيها غباء صامت، وفي شفتيها دعوة رخيصة كأن الزمن يتسكع فوقهما جيئة وذهابًا في انتظار ممل..

كان فيها شيء يغريك بأن تقربها إليك وتقسو عليها، دون أن تدري لماذا قربتها ولماذا كنت قاسيًا إلى هذا الحد!!

ولعل الدنيا كلها قد قست عليها فانتزعت قلبها ولم تترك فيها إلا حسًا صامتًا.. كانت تعيش بحسها، وتحب بحسها، وتكره بحسها.. كان الحب والكره بالنسبة لها كالجوع والشبع.. لا فرق بينهما.. فهي تجوع إن لم تجد رجلًا، وتشبع إذا وجدته!!

ووقفت بجانبه في إحدى هذه الليالي تنظر إليه في اشتهاء صامت، كأنها يتيم مسكين ينظر إلى واجهة محل العجاتي.. وطالت وقفتها بجانبه، وطالت نظرتها إليه، إلى أن مد ذراعًا مترنحة وضعها فوق كتفيها ثم جذبها إليه، ونظر إليها في اعتداد بنفسه كأنه إله الليل، وقال والألفاظ تتساقط من شفتيه كأنها قطرات فاضت بها كأس من الخمر الرخيص:

- إزيك يا بت يا سنية.. مين معاكي الليلة؟!

وقالت وهي تنظر إليه بعينيها الجائعتين:

- ولا حد، يا سي صلاح!

قال كأنه يلقي إليها بقرش:

- طيب خليكي هنا..

وابقى ذراعه المترنحة فوق كتفيها، وانشغل عنها بكأسه وجدله المخمور مع زبائن الصالة، إلى أن حان

موعد «التشطيب» فتوكأ عليها إلى بيتها.. في الزقاق المظلم، بالحي المظلم، وسط المدينة المظلمة!!

وكانت رائحة الخمر في فمه أقوى من رائحة الدنس حوله، وكان الظلام في صدره أعتم من الظلام الذي يحيط به.. وكان المستوى الذي انحط إليه أبعد من الفراش القذر الذي استقبلته عليه، حتى خيل إليه أنه ارتفع فوق هذا الفراش!!

ونظر إلى جسدها وهي بين ذراعيه فرأى هذا الشيء الذي يغريك بأن تقربها إليك، وتقسو عليها.. ولم يدر إلا وكفه الكبيرة ترتفع ثم تسقط في قسوة على صدغها.. ودون سبب ودون مقدمات..

كانت أول مرة يصفع فيها امرأة..

وأحس براحة كبرى لهذه الصفعة.. أحس أنه أسكت همسًا في صدره كان يضايقه!!

ورفع كفه مرة ثانية وصفعها كأنه يحاول أن يسكت هذا الهمس إلى الأبد..

ولم يشعر بمجرد الراحة للصفعة الثانية بل شعر لها بنشوة تسري في أعصابه حتى انتشى لها أصبع قدمه..

وتمادى في نشوته فانهال عليها صفعًا..

وتقبلت صفعاته في صمت وبين شفتيها ظل ابتسامة كأنها تكاد تقبل الكف التي تصفعها.. بينما بريق عجيب يشعّ في عينيها الجائعتين، وجسدها الهزيل ينتفض كأنه جسد كافر تدب فيه الحياة يوم البعث..

وتعبت كفاه..

فاستراح وأراح..

ثم نام كأنه جوال فارغ، أفرغ ما فيه، ثم أُلقي على الرصيف.

وعانى في صباحه ما يعانيه كل صباح.. هذا الصداع القاتل كأن الدنيا تضرب رأسه بنعل حذاء، وهذا الشعور بالحقارة لنفسه، كأنه أصبح منبوذًا من الدنيا كلها..

ولم يحاول أن ينظر إلى سنية وهو يقوم من جانبها، وتركها في نومها كالجثة الصفراء.. ولم يحاول حتى أن ينظر حوله ليرى معالم البيت الذي قضى فيه ليلته.. وأخذ يرتدي ثيابه وهو يحاول أن يسكت كل خاطر يمر بذهنه.. لا يريد أن يذكر أين كان، ولا أين هو، ولا أين يسير..

وخرج إلى الشوارع يطوف بها دون أن يفكر في العودة إلى منزله، وقد مضت عليه أسابيع دون أن يعود وكانت حجته أنه يذاكر دروسه مع بعض أصدقائه..

وجلس في مقهى، ولكنه لم يطق الجلوس طويلًا، فقام يطوف بالشوارع ليجلس في مقهى آخر، ثم لا يطيق الجلوس فيقوم ليزور أحد أصدقائه ثم لا يطيق أن تمتد به الزيارة، فيقوم لزيارة صديق آخر..

وكان يحس بالتعب، ويحس بحاجته الشديدة إلى النوم، وكان يعلم أن الفراش الوحيد الذي يرتاح فيه هو

فراشه في بيته ولكنه لم يستطع أن يذهب إليه، فقد كان يخاف شيئًا في هذا الفراش.

يخاف الوسادة التي رسم فوقها بخياله، رأس سميحة..

الوسادة التي ضمها إلى صدره عامًا كاملًا، وكأنه يضم سميحة..

الوسادة التي أودعها حبه وآماله ولهفته..

إنه لا يزال يحبها، وسيحبها دائمًا، ولكنه يريد أن ينسى حبه.. يريد أن يستريح من هذا السكين الحاد الذي يتحرك في قلبه، وهذا الهواء البارد الذي يملأ صدره كلما رأى قوامًا يذكره بقوام سميحة أو لمح ابتسامة تذكره بابتسامتها، ويريد أن يستريح من الأفكار المجنونة التي تطوف برأسه كلما تذكر أن سميحة أصبحت لرجل آخر، وأنها تضحك له وتضع ذراعها في ذراعه وربما تقبله رغم أنه لم يكتب كتابه عليها بعد!!

وتعجل الليل.. ليستريح في الكأس، ثم في فراش سنية الراقصة!!

ولم يدمن الخمر بقدر ما أدمن ضرب سنية.. كانت راحته الكبرى في ضربها.. كأنه يضرب فيها الدنيا كلها.. وكانت لذتها الكبرى في أن يضربها.. فلم تكن سخونة الحب - كما تحسها - إلا الأثر الذي تتركه صفعاته على جسدها..

ولم يعد «مصروفه» الضئيل الذي يعطيه له والده يكفيه.. فاستولى على «المصروفات المدرسية» التي ائتمنه عليها أبوه ليدفعها في خزينة الجامعة وأنفقها في لياليه، ثم لم يكفه كل ذلك.. فبدأ يستولي على نقود سنية..

ولم يخطر على باله أن يمد يده إلى نقود سنية، وكل ما هنالك أنها رأته يومًا متضايقًا يزفر أنفاسه كأنه حيوان لا يجد مفرًا من قفصه.. فقالت مترددة:

- ما لك يا سي صلاح؟!

وصرخ وهو يزيحها بذراعه:

- اخرسي أنت!!

- حاضر..

وعاد يزفر أنفاسه، وعادت تقول كأنها لا تطيق صمته:

- بس لو كنت أعرف مالك.. والنبي ده أنا أقطع نفسي حتت علشانك، ولا أسيبك شايل الهم على رأسك بالشكل ده!!

وقال كأنه يسخر منها:

- ولو قطعت نفسك حتت، حاعمل بالحتت دي إيه.. أديهم لنيقولا بتاع البار... ولا أشتري بيهم سجاير.. يا شيخة بلا فقر!!

وفهمت سر زفراته!!

وقامت إلى دولاب ملابسها ومدت ذراعها وأخرجت ورقة بخمسة جنيهات، ثم عادت إليه في تردد:

- خد دول مني يا سي صلاح لغاية ما تفك ضيقتك..

- إيه دول؟!

- اعتبرهم سلفة..

وارتفعت النار إلى رأسه وصفعها بقسوة فوق وجهها حتى وقعت على الأرض من شدة الصفعة، وصرخ:

- ما بقاش إلا كده.. ما بقاش إلا أنك تصرفي عليّة.. بفلوسك النجسة!!

وركلها بقدمه، واتجه إلى الباب يريد الخروج.. فتعلقت بقدمه، وهي تنتحب في صوتها المتحشرج:

- والنبي ما تزعلش مني يا سي صلاح.. أنا مش عاوزة إلا راحتك!!

وتشبثت به وهو يسحبها وراء قدميه إلى أن تمكنت من الانتصاب فوق ركبتيها، ودست الجنيهات الخمسة في جيب سترته..

وذهب إلى الحانة، وتحسس جيبه، وهو واقف أمام نيقولا «البارمان».. فوجد الجنيهات الخمسة، وقبض عليها وهي داخل جيبه.. كأنه يريد أن يمزقها، ولكنه عاد وابتسم ابتسامة ساخرة كأنه يسخر من نفسه، ثم أخرج الجنيهات الخمسة وألقى بها أمام نيقولا وصاح:

- هات دور للجماعة!!

ومن يومها تعود أن يستولي على نقود سنية، ولم يعد ينتظر أن تعطيه، ولم يعد يكلف نفسه أن يطلب منها، إنما عرف أين تضع نقودها.. فكان يأخذ ما يشاء دون سؤال..

إلى هذا الدرك وصل، بل وصل إلى حد أن أصبح يزهو ويتفاخر بأنه يعيش على حساب امرأة..

ورغم ذلك.. فقد كان لا يزال في قرارة نفسه إنسانًا نظيفًا.. وقد حاول كثيرًا أن ينزع من نفسه هذا الشيء النظيف فلم يستطع..

وكان في قرارة نفسه إنسانًا يحب، ويحن إلى هذا الحب العف الطاهر.. حبه الأول، وقد حاول كثيرًا أن ينسى هذا الحب، وأن يدنس نفسه حتى لا يصلح للعفة والطهر، ولكنه لم يستطع..

وكان يجد نفسه أحيانًا منساقًا إلى ضاحية مصر الجديدة.. وكان يجد نفسه يسير في شارع السباق وهو يتسلل بين أستار الليل.. ثم يقف طويلًا أمام بيتها وقد يلمح الأضواء تنبعث من نوافذه وشرفاته، ويخيل إليه أنه يرى أشباحًا تتحرك وأنه يسمع صوت ضحكات مرحة سعيدة.. فيعود ثائرًا، وضربات قلبه تمزق صدره.. يعود لينهال ضربًا على سنية!!

ثم التقى بها مرة!!

كان في شيكوريل ذات يوم ينتقي لنفسه رباط عنق.. ورآها أمامه.. وتصلب كل شيء فيه حتى أنفاسه كادت

تتجمد على شفتيه.. ونظرت إليه.. إلى وجهه الذابل النحيل، وإلى قوامه الرفيع الذي ازداد نحافة حتى لم يعد له عرض، وإلى ثيابه المتهدلة فوق جسده، وإلى عينيه الغائرتين اللتين يحيط بهما سواد كأنهما بطاقتا تحقيق شخصية صرفهما له الليل..

وتقدمت منه في خطوات مترددة وفي عينيها نظرة أقرب إلى الرثاء، وقالت وصوتها يكاد من شدة انفعالها لا يُسمع:

- إزيك يا صلاح!!

وحاول أن يسيطر على نفسه وأن يخفي انفعاله، فقال وهو يلتقط يدها الصغيرة في كفه الكبيرة:

- إزيك إنت.. إنت لوحدك ولا إيه؟!!

وأحست بانفعاله في كفه الباردة، وقالت وهي تحاول أن تخفف عنه بابتسامتها:

- ماما في الدور التالت بتتفرج على السجاجيد..

قال وهو يحاول أن يسخر منها:

- والفرح إمتى بإذن الله؟!

- يوم الخميس الجاي!!

وكأنها أرادت أن تغير مجرى الحديث.. فتقدمت نحو أربطة العنق التي يعرضها البائع أمامه وقالت:

- تسمحلي أختار لك كرافتة!!

ولم يُجب، وظل ينظر إليها بعينين لا تتحركان..

والتقطت «كرافتة»، وقالت وهي لا تزال تحاول أن يبدو الموقف طبيعيًا:

- أهي دي حلوة قوي.. تليق على البدلة اللي أنت لابسها!

ووضعت «الكرافتة» في يده، ثم قالت:

- أورفوار بأه، أحسن ماما مستنياني.

وأمسك بيدها في رفق وقال:

- سميحة..

- نعم..

- ولا حاجة.. بس بقالي زمان ما قلتش سميحة!!

واختفت ابتسامتها، وغابت عيناها وراء جفنيها كأنهما تبحثان في الماضي عن يوم لقائهما الأول، ثم قالت وهي تنظر إليه وقد أفاقت لنفسها:

- خد بالك من نفسك يا صلاح..

ثم أرخت عينيها قليلًا واستطردت:

- علشان خاطري!!

ثم اتجهت إلى المصعد وهو يتبعها صامتًا بنظراته، ثم صعدت أمام عينيه.. كأنها تصعد إلى السماء!!

وتنبه إلى صوت البائع وهو يلفت نظره إلى أربطة العنق، فناوله «الرباط» الذي اختارته سميحة، وطلب منه أن يلفه له، ثم دفع الثمن، وخرج إلى الشارع وهو

كالمذهول.. لا يدري هل هو سعيد لأنه رآها وتحدث إليها.. أم هو تعس لأنها حادثته كأنها لم تعد له، ثم تركته وصعدت إلى السماء..

وضغط على اللفافة التي تطوي رباط العنق الذي اختارته سميحة، ثم ابتسم كأنه تذكر شيئًا.. ثم اتسعت ابتسامته حتى كاد يقهقه..

لقد دفع ثمن هذا الرباط من نقود سنية!!

إن الطهر يختار، والدنس يدفع!!

إن الحب ينتقي، والجسد يحمل العبء!!

إن سميحة هي الفكرة، وسنية هي المادة!!

وارتاح إلى هذا الاكتشاف، واعتقد في نفسه أنه أصبح فيلسوفًا، ولكي يتعمق أكثر في فلسفته هرع إلى الحانة والوقت لا يزال ظهرًا..

وتذكر مع كأسه الأولى.. يوم الخميس.. يوم «الفرح»!

ترى ماذا يصنع في هذا اليوم؟

هل يرسل باقة من الزهر لا تحمل اسمًا فتعرف أنه مرسلها؟

هل يقتحم الفرح، ويصرخ في وجه الناس: هذه الفتاة لي.. ثم يخطفها من فوق «الكوشة» ويفر بها؟

هل يستأجر بعض الأوباش الذين أصبح الكثير منهم أصدقاء له، ويهجم بهم على الحفل ويحطم ما فيه؟!

هل يرسل لها برقية تهنئة؟

هل يرسل لها الدبلة الفضية التي أعادتها له في علبة أنيقة.. لعلها تتذكر وتحترم ذكرى حبهما؟!

وظلت هذه الفكرة تتردد في رأسه أيامًا متتالية، حتى جاء يوم الخميس.. فلم يفعل شيئًا أكثر مما يفعله كل يوم.. ذهب إلى الحانة، وكل ما جدّ عليه أنه كان يرفع كأسه بين حين وآخر ويصرخ:

- في صحة العروسة.. العروسة بس.. وبلاش العريس!

وعاد يترنح في آخر الليل إلى بيت سنية.. وما كاد يراها عارية أمامه بجسدها الأزرق وعينيها الجائعتين تتطلعان إليه، حتى عاد يصيح وهو يقهقه:

- أهلًا بعروستي.. أنت نصيبي في الدنيا.. يا عروسة يا حلوة
يا بنت الكلب!

ثم ضربها..

وأخذ يضربها إلى أن ارتاح..

ولم يجد راحته هذه الليلة في جسدها.. بل وجد الراحة في دموعه.. الدموع التي ضنت بها عليه عيناه منذ زمن طويل..

ولم يتحمل هذه الحياة طويلًا.. وبدأ يزداد هزالًا يومًا بعد يوم حتى أصبح كالشبح الأصفر ليس فيه من الحياة إلا عينان تلمعان حينًا وتنطفآن حينًا.. كأنه يتنفس بهما.. أصبح لا يستطيع أن يقف على قدميه إلا

مخمورًا.. ولا يستطيع أن ينام إلا «مسطولًا» تحت تأثير الحشيش، ولا يستطيع أن يشبع جسد سنية إلا إذا اعتصر الحياة من جسده اعتصارًا.

وبدا في هزاله كأن رأسه قد ازداد حجمًا، وكأن العروق التي انتفضت في جبينه شروخ في أرض مشققة جافة. بدا كأنه خارج من القبر أو ذاهب إليه..

ثم بدأ يشعر بآلام حادة في معدته، حاول أن يسكتها بالخمر، ثم حاول أن يضمدها بالحشيش والأفيون.. ثم صرخ ذات مساء صرخة حادة ووقع مغشيًا عليه..

ونقله زبائن الحانة إلى مستشفى قصر العيني..

ولا يدري كم بقي هناك قبل أن يفتح عينيه، ولكنه فتحهما كأنه يعود إلى الحياة، والتقى بوجه والدته فابتسم كأنه وجد نفسه، ثم نظر إلى وجه الطبيب، فاتسعت عيناه كأنه يقترب من الجحيم..

وأخفى عينيه وراء جفونه، ثم عاد وفتحهما كأنه لا يصدق ما رآه..

ونظر إلى الطبيب نظرة خاطفة، ثم ندت عنه صرخة مكبوتة كأن شيئًا قد تمزق في صدره.. وعاد مرة أخرى إلى غيبوبته.

وانحنى الدكتور فؤاد يحقنه في ذراعه، وقد بدت على وجهه الوسيم علائم الجد والخطورة..

الدكتور فؤاد عزمي..

زوج سميحة!!

5

وفتح عينيه في صباح اليوم التالي، وكان قد استرد بعض قواه.. ولم يلبث قليلًا حتى جاء الدكتور عزمي ليقف بجانبه.

واستجمع ما استرده من قواه لينظر إليه نظرة ثابتة فيها نوع من التحدي ونوع من السخرية، وقال وهو يحاول أن يتغلب على ضعف صوته:

- حضرتك مين؟

وأجاب الطبيب وبين شفتيه ابتسامة هادئة:

- أنا الدكتور فؤاد عزمي.. الحمد لله على سلامتك.. احمد ربنا قوي.. لأن حالتك كانت وحشة خالص..

وقال وهو لا يزال يتحدى:

- ليه.. كان عندي إيه؟

- حصلك انفجار في المصران الأعور.. العملية كانت خطرة لكن ربنا ستر..

- وحضرتك اللي عملت العملية؟

- أيوة.. إنما ربنا وحده هو اللي أنقذك..

وقال من بين أسنانه:

- متشكر!!

وأدار وجهه كأنه يعز عليه أن يعترف بالجميل، وترك عينيه تستريحان من افتعال التحدي، بينما أخذ الدكتور فؤاد عزمي يتسمع قلبه ويعد نبضه ويتحسس موضع العملية، ثم قال في صوته المليء العذب:

- لازم تريح نفسك.. خليك نايم على ضهرك على طول وما تتكلمش كتير.. ما تتكلمش خالص..

ولم يرد.. بل لم يستطع أن يعي كل ما قاله الطبيب.. فقد عاوده ضعفه، ولم يستطع أن يقاوم جفونه وهي تلقي بنفسها في إعياء فوق عينيه.. فنام!!

وأخذ يصحو وينام، وكلما صحا رأى الدكتور فؤاد أمامه بوجهه الوسيم وقامته الممشوقة، وشخصيته القوية وابتسامته التي تفيض بالرجولة الطيبة، وكلما نام راودته أحلام مزعجة أشبه بالكوابيس، وصرخ في نومه كأن الشياطين تلعب بقلبه في بحر من دمه..

وكره صحوه، لأنه كره هذا الوجه الوسيم وهذه القامة الممشوقة وهذه الشخصية القوية..

وكره نومه.. لأنه يخاف أحلامه، ويخاف عذاب قلبه الذي تتقاذفه الشياطين..

وأصبح دائمًا في حالة نفسية تعسة.. أثرت على حالته الصحية فكان لا يفيق من إغمائه إلا ليغمى عليه من جديد، ولا يكاد جرحه يجف حتى ينزف، ولا تكاد أنفاسه تتصل حتى تتقطع..

وانتظر كل من حوله أن يموت بين ساعة وأخرى..

وكان الدكتور فؤاد عزمي دائمًا معه كأنه يتحدى به الموت.. كان يقوم النهار والليل بجانب فراشه، لا يكاد يبتعد عنه لبعض شأنه، حتى يعود ملهوفًا كأنه يخشى أن يكون الموت قد سبقه.

إلى أن زال الخطر عن صلاح.. وأصبح له من قواه ما يستطيع به أن يتحكم في العواطف النفسية التي تعصف بأعصابه، وأن يخفي أفكاره السود التي تتخبط في رأسه.. وكانت هذه العواصف والأفكار لا تدور إلا حول الدكتور فؤاد..

الرجل الذي اغتصب منه سميحة ليتزوجها..

الرجل الذي هدم حياته وشرده بين الحانات والمراقص..

الرجل الذي خنق أحلامه، وضيّع مستقبله، ومزق كيانه..

ورغم ذلك.. فهو لا يستطيع أن يكرهه.. لأنه أيضًا الرجل الذي رد له حياته، وسهر بجانبه يطرد عنه الموت وهو يحوم حول فراشه..

وتمنى أن يكرهه لتستقر عواطفه على شيء، ولكنه كان لا يكاد ينادي الكراهية من أعماق نفسه... حتى يسمع صوت أمه:

- «البركة في الدكتور فؤاد»!!

ثم تقوم لتستقبل الدكتور وهي تكاد تنحني على يده لتقبلها شكرًا وامتنانًا.. ثم يسمع الممرضات وكل منهن لا

تهنئه هو بالشفاء بل تهنئ به الدكتور فؤاد، ويسمع معيديه من أقاربه وأصدقائه وهم يتحدثون:

- «الدكتور فؤاد.. ده معجزة»!!

إنه معجزة حقًا..

أما هو.. إنه الميكروب الذي اكتشفه الدكتور فؤاد، إنه الجثة التي أعاد لها الدكتور فؤاد الحياة، إنه الأرض التي قطعها الدكتور فؤاد في عدوه نحو المجد..

إنه يكرهه.. يكرهه!!

ولكن.. لماذا يكرهه؟!!

وتهدأ أنفاسه قليلًا، وتصفو نفسه كأن العواصف قد طردت منها السحب السوداء، ثم يأخذ في تفكير هادئ عاقل.

ما ذنب الدكتور فؤاد إذا كان قد تزوج سميحة؟! إنه قطعًا لم يكن يدري بما بينهما من حب..

بل ما ذنب والد سميحة إذا كان قد اختار لابنته الدكتور فؤاد؟! إن من حقه أن يختار لها زوجها، وقد أحسن الاختيار.

ثم.. ما ذنب سميحة نفسها إذ رضيت بهذا الزوج، ثم ضحت بحبها من أجله، ثم سعدت بجانبه؟!! إنه يستحق هذا الزواج.. ويستحق هذه التضحية.. ويستحق أن تسعد بجانبه!!

ولكنها كانت تحبه هو..

هل استطاع فؤاد أن يعوّضها عن الحب؟

وهل يكفي الحب وحده للزواج.. هل كانت تتزوجه لتعيش معه عالة على والده في بيت مزدحم لا تملك منه إلا غرفتها.. لا تملك حتى حق اختيار الطعام الذي تعده له.. وتضحي من أجل ذلك بكل ما يستطيع رجل مثل الدكتور فؤاد أن يوفره لها؟!!

كانت تستطيع أن تنتظره حتى ينتهي من دراسته الجامعية، ولكن كيف تستطيع أن تنتظر وقد حكم على فتيات الشرق كله أن يتزوجن في سن السادسة عشرة، ومن تصل منهن إلى سن الثامنة عشرة، دون زواج تلطم أمها الخدين وتعتبر أن ابنتها «بارت»..

ثم لو أنها انتظرت، هل كان ينجح في حياته العامة كنجاح الدكتور فؤاد؟

إنه سينجح في حياته، سيقنع سميحة أنه كان جديرًا بحبها؛ جديرًا بانتظارها.. سيجعلها تتحسر دائمًا على حبها الأول.. سيجعل من نفسه أمنية عزيزة ضاعت من حياتها..

وتغلب عليه هذا النوع من التفكير، وبدأ ينظر إلى الدكتور فؤاد كأنه ندّ له.. ألم يقفا سويًا على قدم المساواة أمام سميحة.. فوهبت أحدهما قلبها، ووهبت الثاني حياتها..

ولكنه رغم ذلك.. ورغم ما كان يبذله الدكتور فؤاد من مجهود في التودد له.. ظل دائمًا يضع حائلًا بينهما.. كان

يتكلف الحديث معه، ويتكلف الابتسام له، ويتكلف النكتة كلما حاول الدكتور فؤاد أن يتبادل معه النكات.

وظل دائمًا يتساءل عن سر اهتمام الدكتور به كل هذا الاهتمام.. هل يهتم بكل مرضاه هكذا؟ هل.. هل قالت له سميحة عما كان بينهما، فأراد - أي فؤاد - أن يثبت لنفسه أنه لا يغار من ماضي زوجته.. فأحيا هذا الماضي، وكان في استطاعته أن يتركه للموت؟!!

إن بعض الزوجات الغبيات يروين لأزواجهن قصص ماضيهن.. ربما كانت سميحة إحدى الزوجات الغبيات؟!

ولكن لم يكن يبدو أي شيء يدل على أن الدكتور فؤاد يعلم شيئًا.. لقد أجرى له العملية بمحض الصدفة.. فقد كان الطبيب «النوبتشي» عندما نقلوه إلى قصر العيني، ثم استمر في علاجه بعد أن نقل إلى غرفة درجة أولى بالمستشفى ولم يجد أهله دافعًا لاستدعاء طبيب آخر ما دامت العملية نجحت كل هذا النجاح..

وسأله مرة وهو يحاول أن يتخابث:

- إنت متجوز يا دكتور؟

- عريس جديد لنج.. وبدل ما قضي شهر العسل مع العروسة.. قضيته مع حضرتك!!

- أنا آسف.. دي لازم العروسة زعلانة، وبتشتم فيّة!!

وتعثرت كلمة «العروسة» على شفتيه.. وبدا كأن وجهه قد احتقن، ولكن فؤاد لم يلحظ شيئًا، وقال وهو يضحك:

- لو كانت زعلانة يبقى لها حق.. إنما كل اللي بيتجوزوا دكاترة بيبقوا عاملين حسابهم على كده.. وكل واحدة منهم تستحق تمثال؟!

وغيّر صلاح الحديث بسرعة كأنه لم يعد يتحمل منه المزيد..

وعاد يقارن بين نفسه وبين الدكتور فؤاد.. المقارنة التي بدأت منذ أسابيع ولم تنته..

ترى هل تقوى إرادته ليخط لحياته اتجاهًا جديدًا يؤدي به إلى مستقبل ضخم.. يستطيع أن يتباهى به.. ويستطيع به أن يجبر الناس على أن يقولوا عنه أنه معجزة كما يقولون عن فؤاد!!

لقد كان إنسانًا كاملًا عندما كان يحب سميحة.. وهو لا يزال يحبها.. وبهذا الحب يستطيع أن يبقى دائمًا إنسانًا كاملًا..

لن يعود ثانية إلى الحانة، ولن يعود إلى سنية الراقصة..

ولكن ما ذنب سنية؟ إنها ستنساه سريعًا.. كانت تحبه بجسمها، وستجد رجلًا يشبع فيها هذا الحس.. ويضربها كما كان يضربها وأكثر..

ودخلت إحدى الممرضات تقول ضاحكة:

- الست بتاعة الفراخ جت.. وعايزة تشوفك!

وابتسم صلاح وهو يعتقد أن الممرضة تمزح:

- تطلع إيه بتاعة الفراخ دي؟!!

وقالت الممرضة وهي تقهقه وتريح قوامها على الجانب الأيمن ثم تعود وتريحه على الجانب الأيسر:

- واحدة ست.. من يوم ما عملت العملية وهي تيجي ساعة الغدا وفي إيدها جوزين فراخ محمرين.. نحلفلها إنك ممنوع عن الأكل ما تصدقش، وتفضل تتحايل علينا لغاية ما ناخد الفراخ ونضطر نفرقهم على الدرجة التالتة..

وعرف صلاح أنها سنية..

ودخلت في خطوات مرتعشة، ووقفت قبالته لا تستطيع أن تتكلم كأنها ابتلعت لسانها.. ثم قالت في صوت خافت:

- إزيك يا سي صلاح.. الحمد لله على سلامتك..

ونظر إليها صلاح طويلًا.. إلى ضعفها، وهزالها وإلى الغباء الصامت الذي يطل من عينيها، وإلى الدعوة الرخيصة التي تتسكع فوق شفتيها، وإلى هذا الشيء الخفي الذي يدعوك إلى أن تقربها لتقسو عليها..

ونظر إليها كأنه ينظر إلى أيام حياته تعكسها أمامه مرآة الزمن.. أيام قد يستطيع أن ينساها ولكنه لا يستطيع أن يمحوها..

وقال لها في صوت ضعيف مكروب:

- الله يسلمك يا سنية.. إزيك إنت.. وإزاي الشغل؟!

- المهم أنت.. الشغل يروح وييجي.. إنما أنت اللي تفضل لنا على طول.. ربنا يخليك ويردك سليم يا رب..

- إنت سبتي الشغل ولا إيه؟!

- من يوم ما جرى اللي جرى.. وأنا ما ليش نفس أشتغل!!

- ودا اسمه كلام.. حد يسيب أكل عيشه؟!

- المهم أنت يا سي صلاح.. والنبي ده أنا ما عدت آكل ولا بنام.. وقضيت اليومين دول لايده بين العساكر والتمرجية اسأل واطمئن عليك.. ما خليتش ولي من أولياء الله إلا لما سألته صحتك وعافيتك.. ما خليتش شيخ من اللي مكشوف عنهم الحجاب إلا لما رحت له.. ولا فنجال إلا لما حلفته ميت يمين..

وأحس صلاح بغصة..

وقال وكأن ماضيه يقف كالشوكة في حلقه:

- أنا خلاص يا سنية ما بقتش أنفع!!

قالت وقد أطلقت من عينيها النظرة الجائعة.. كأنها تجري بهما وراء رائحة شواء:

- تف من بقك يا سي صلاح.. ما تقولشي كده.. ده أنت بقيت ما شاء الله زي الوردة، وصحتك أحسن من الأول.

قال وهو ينظر إليها:

- والله أنا مش عارف أرد جميلك إزاي.. إنما لي عندك رجاء صغير..

قالت وهي متعجبة للهجته المهذبة:

- أأمر يا سي صلاح..

قال وهو لا يزال يخفي عنها عينيه:

- بلاش تيجي هنا.. أحسن نينة ولا بابا يشوفوكي.. تبقى حكاية!

- ما أنا عارفة.. علشان كده عمري ما جيت وحد منهم هنا!!

- برضه بلاش تيجي خالص..

- يعني ما اشوفكش.. ماطمنشي عليك؟!!

- أنا بقيت كويس.. وأول ما أنزل حافوت عليكي في البيت!

قالت وهي تنظر إليه بعينيها الغبيتين:

- حاسة إنك اتغيرت من ناحيتي يا سي صلاح..

ولم يستطع أن ينظر إليها، وقال:

- أبدًا.. بس العيا هدني!!

- سلامتك.. بكرة تقوم بالسلامة..

وخرجت سنية ذليلة منكسة الرأس.. كأنها خرجت من حياته!!

وخرج صلاح من المستشفى بعد بضعة أيام.. كأنه ولد من جديد..

وسيطرت على رأسه فكرة واحدة، ووضع أمام عينيه هدفًا واحدًا.. أن ينجح وأن يبلغ في نجاحه ما لم يبلغه الدكتور فؤاد عزمي.. يريد أن يقنع سميحة بأنها خسرت كثيرًا عندما خسرته، ويريد أن يبدو أمامها كأمنية غالية ضاعت منها، ويريد أن يملأ قلبها بالحسرة على حبها الأول.. يريدها أن تفخر بهذا الحب، وأن تتباهى به بينها وبين نفسها، وأن تندم لأنها لم تنتظر..

وقد عرف أنه انغمس في الحانات، وألقى بنفسه بين أحضان سنية الراقصة لأنه أراد أن ينسى سميحة.. ولكنه اليوم لا يريد أن ينسى.. سيتخذ من هذا الحب حافزًا للنجاح.. وسيضع سميحة دائمًا بجانبه لتشهد نجاحه..

إنها تركته وعاشت مع رجل آخر..

ولكن الحب لم يتركه وهو لا يزال يعيش معها فيه..

وأصبح إنسانًا أقرب إلى الكمال..

عاد كما كان قبل أن تتزوج سميحة.. كان يتأنق في ثيابه كلما خرج وكأنه على موعد معها، وكان يتأنق في خطه عندما يكتب وكأنه يكتب لها، وكان يتأنق في حديثه ويختار ألفاظه كأنها تسمعه، وكان يتعجل النجاح كأنه ينجح لها.. وكان كلما عاد إلى فراشه رآها بخياله فوق الوسادة الخالية.. وكان يراها كما رآها لأول

مرة منذ عامين أو أكثر.. سمراء، صغيرة القد، كل شيء فيها يتنهد برقة وضعف.. عيناها الواسعتان تتنهدان، وشفتاها المكتنزتان تتنهدان، ووجنتاها العاليتان تتنهدان.. وكان يسمع لجمالها صوتًا كرفيف أجنحة الملائكة، ويسمعه بخياله.. فإذا استمع إليه طويلًا أثار منه الخيال حتى يكاد يحطم الملاك، وكم من مرة هاج به الليل حتى حاول أن يحطم الوسادة الخالية!!

ولم يلتق بها أبدًا، ولا لقاء صدفة..

وكان يتردد على عيادة الدكتور فؤاد عزمي.. وكان في كل مرة يذهب وكأنه على موعد معها، ويدور بعينيه في أرجاء العيادة باحثًا عنها، ويسمع صوتًا في حجرة السيدات فيخيل إليه أنه صوتها، ثم يبحث عنها في وجه فؤاد، وكأنه سيلمح آثارها على وجهه.. ثم يعود مكتفيًا بخياله..

ومرت السنون وهو لا يراها ولا يلتقي بها.. لا يرى منها إلا زوجها الذي أصبح طبيب العائلة، وأصبح يراه في فترات متباعدة.

وكان الدكتور فؤاد لا يتحدث أبدًا عن زوجته إلا بما ينطق به وجهه من مظاهر السعادة، وكان صلاح لا يجرؤ على سؤاله عن زوجته،
ولا يفكر في سؤاله..

واكتفى بخياله..

أصبح كالشعراء..

أصبح معروفًا عنه أنه كثير الصمت، منطوٍ على نفسه، عالي الخلق، مُجد في دروسه..

وابتعد عن كل أصدقائه وزملائه الطلبة الذين صحبوه في ليالي الخمر والنساء، وابتعدوا عنه اعتقادًا منهم أن صحته لم تعد تساعده على لياليهم.. ولم يبق من ذكرى هذه الليالي في نفسه إلا ذكرى سنية التي تخطر له بين الحين والحين.. فيحس كأن جرحًا عاد ينزف في صدره ويذكر أنه عاش بضعة شهور على رزقها ومن مالها فتكاد ضلوعه تتحطم تحت ثقل الذكرى.

وقد فكر كثيرًا.. كيف يغسل عن صدره هذه الذكرى؟

ولم يجد إلا طريقًا واحدًا.. أن يرد لها ما أخذه منها.. ولكن كيف؟ إنه أخذ منها خلال العام الذي عاشه معها ما يزيد على مائتي جنيه
لا يملك منها مليمًا واحدًا..

وأصبح من أهداف نجاحه.. أن يعمل ليكسب مائتي جنيه يدفعها لسنية ويغسل بها ضميره..

ومرت السنون..

ونجح صلاح ونال البكالوريوس بتفوق وأصبح معيدًا بالجامعة..

واستقال من الجامعة بعد عام ليصبح موظفًا كبيرًا في إحدى الشركات..

ثم أصبح مديرًا للشركة..

وهو دائمًا يعيش على حبه الأول.. صامتًا، منطويًا على نفسه.. عالي الخلق.. مجدًا في عمله.. يعود كل مساء إلى وسادته الخالية.. ليرى فوقها رأس سميحة فيحتضنها بخياله..

وهو دائمًا وفي أول كل شهر يرسل إلى سنية مبلغًا من المال باسم مجهول.. حتى أوفى ما عليه من دين.. وغسل ضميره.. واستراح!!

وبدأت أمه تفكر له في الزواج.. فابتسم ساخرًا.. لقد وهب نفسه لدير الحب.. إنه راهب لا يحق له الزواج!

لماذا؟!

لماذا لا يتزوج.. لماذا لا يثبت لنفسه ولسميحة أنه يستطيع أن يكون خير الأزواج، وأن تسعد زوجته بجانبه كما لم تسعد زوجة من قبل؟

وبدأ يستمع إلى حديث أمه.. ويتتبع العروض التي تتقدم له بها..

وتردد كثيرًا..

لقد كان حلم شبابه أن يتزوج فتاة يحبها وتحبه، وهو الآن مقدم على الزواج من فتاة لا يعرفها.. ومهما حاول أن يعرف عنها.. فلن يعرف إلا أباها وعائلتها والثروة التي تملكها..

إنها نفس الطريقة التي تزوجت بها سميحة..

وقد تكون الزوجة التي يختارها تحب شابًا آخر.. كما كانت سميحة تحبه.. وهو لن يعلم شيئًا عن هذا الحب، كما لم يعلم الدكتور فؤاد شيئًا عن حبه!!

وعاد يبتسم ساخرًا من نفسه..

هذه هي الحياة.. الحياة هنا في مصر!

ورغم ذلك.. فيجب أن يتزوج ليثبت لسميحة أنه خير الأزواج..

واستقر رأيه على واحدة، ابنة رجل كبير من رجال الاقتصاد.. كل ما فيها عكس ما في سميحة.. كانت قوية.. فارعة الطول، شقراء، ليس في جمالها ضعف ولكن فيه بريقًا يخطف البصر كأنه شعاع يهدي الرجال في دنيا الظلام.. وكانت لها شخصية حلوة، طيبة، وكان يبدو أنها تحتمل كثيرًا في سبيل إسعاد غيرها، وتحتمل كثيرًا في سبيل إخفاء شقوتها... إن شقيت!!

وكان قد رآها كثيرًا.. وكان بينهما شيء كثير من الاحترام.. هو يحترمها لجمالها وشخصيتها الحلوة الطيبة، وحديثها الهادئ دائمًا، المهذب دائمًا، ولنظراتها الثابتة دائمًا، ليس فيها غرور ولا إغراء، إنما نظرات تفرض عليك الاحترام.. وهي تحترمه لشبابه، ولنجاحه، ولأنه مهذب مثلها، لم تلمح في عينيه يومًا نظرة اشتهاء، ولم تلمح في حديثه كلمة لها أكثر من معنى، ولم تلمح في رجولته شيئًا يعيب الرجولة.

ولم يحاول أن يسأل إن كانت تحب آخر.. فالدكتور فؤاد لم يسأل إن كانت سميحة تحب غيره..

وتقدم خاطبًا..

وتم الاتفاق، في هدوء وبساطة..

وأمسك بيدها اليمنى ووضع في أصبعها دبلة الخطوبة.. دبلة من ذهب.. ثم انحنى على اليد الرقيقة يقبلها في احترام كبير..

ووضع في يده اليمنى الدبلة الأخرى.. ووجد نفسه ينظر إلى يده اليسرى. إن الدبلة الفضية لا تزال في مكانها من أصبعه.. الدبلة التي تحمل اسم سميحة وتاريخ أول لقاء لهما..

ونقل بصره بين الدبلتين.. الذهبية التي أشهد بها الناس على زواجه من درية.. والفضية التي أشهد بها الله على زواجه من سميحة..

زواج في الأرض.. وزواج في السماء!

زواج من الحقيقة.. وزواج من أوهامه!

هذا هو الفرق بين الذهب والفضة!

وقضى المساء يتحدث مع أفراد العائلتين عن الأحوال الاقتصادية.. ثم صحب خطيبته إلى فندق سميراميس، وجلسا إلى مائدة في ركن بعيد منزو، تحدثه عن طفولتها وشبابها، ويحدثها عن طفولته

وشبابه.. وتروي له نوادر الصديقات، ويروي لها نوادر الأصدقاء..

ثم قام يراقصها..

وتردد كثيرًا قبل أن يضع خده على خدها.. وشعر بحفيف أنفاسها يطوف بوجهه، وبدقات قلبها فوق صدره، وبنبضات جسدها تعزف في توافق عجيب مع نبضات جسده..

وضغطها في رفق إليه، وكفه الكبيرة تمسح في تردد فوق أستار المذبح المقدس..

ولكنه لم يستطع وهو يراقصها أن ينسى نفسه، أو ينسى احترامه لها.. كان يشعر بهدوء وراحة وهي بين ذراعيه، ولكنه لم يشعر باللهفة المجنونة.. لهفة الحب..

كان سعيدًا.. ولكنها سعادة مَن وُفق في عمل ناجح حسب حساب كل خطوة منه!

وقال لها وقد عادا إلى مائدتهما:

- درية.. تأكدي إنك حتكوني سعيدة معايا..

قالها كأنه يطرد معنى آخر خطر على نفسه..

وقالت وهي تبتسم في حنان، وفي عينيها هذا البريق الذي يهدي الضالين:

- أنا متأكدة.

وعاد ليلتها ليرقد على فراشه.. ونظر إلى الوسادة الخالية، فرأى بخياله رأس سميحة.. فابتسم في حسرة،

ثم اتسعت ابتسامته كأنه يسألها رأيها في هذا الزواج!!

ونام، كما تعود أن ينام منذ سبع سنوات وحبه الأول بين ذراعيه..

وحدد موعد الزفاف..

وكان الدكتور فؤاد عزمي والسيدة حرمه من بين المدعوين.

6

وكانت دعوة الدكتور فؤاد عزمي والسيدة حرمه إلى حفلة الزفاف أمرًا طبيعيًا يحتمه الواجب.. فالدكتور فؤاد هو طبيب العائلة منذ أجرى له العملية الجراحية، أي منذ سبع سنوات وأكثر، فيجب أن يُدعى
ولا تصح دعوته دون أن تُدعى معه السيدة حرمه.. سميحة!

ورغم ذلك فقد كانت هذه الدعوة هي مدار تفكير صلاح في الأيام التي سبقت يوم الزفاف.. وأصبح ينتظر هذا اليوم كأنه على موعد مع عروسه لقضاء الليلة الكبرى!

ترى كيف أصبحت الآن؟

هل ترهلت وازداد وزنها وأهملت نفسها بعد أن أصبحت أمًا لثلاثة أطفال؟!

هل فقدت جمالها الضعيف المتنهد، ورقتها، ولفتات عينيها، وعذوبة ابتسامتها، وحرارة قلبها؟!

هل لا تزال تحبه.. وهل تذكر أيامها معه.. كل دقيقة وكل ثانية وكل همسة وكل لمسة.. كما يذكرها؟!

ماذا يقول لها عندما يستقبلها في ليلة زفافه؟

هل يقف صامتًا، ويتجاهل كل شيء، ويردد نفس الكلمة التي يستقبل بها باقي المدعوين؟!

أم.. هل يضغط على يدها ضغطة خفيفة، ويبتسم لها ابتسامة تحمل خفقات قلبه، ثم يهمس في أذنها بأنه لا يزال مقيمًا على حبها بكل ما فيه من حياة ومن قوة، ويعتذر لها لأنه تزوج؟!

وكان يعتقد أنه سيحتمي من تفكيره هذا في يوم الزفاف، لكثرة مسؤولياته في هذا اليوم.. ولكنه قام من نومه في الصباح.. النوم القلق المتلهف.. وساءل نفسه ماذا عليه أن يعمل، فلم يجد عليه أن يعمل شيئًا سوى أن ينتظر المساء ليذهب إلى بيت عروسه ويستقبل معها المدعوين..

كان قد قص شعره في اليوم السابق.. وكانت حلته الجديدة قد أعدت.. وكانت جميع ترتيبات الحفل ملقاة على عاتق والد العروسة.. ولم يكن يستطيع أن يذهب إلى مكتبه لأنه في إجازة، ولا أن يذهب إلى عروسه لأنها مشغولة عنه بزينتها..

وجلس في انتظار المساء يستعرض حياته..

لقد حقق كل ما أراده منذ أقسم وهو في المستشفى أن ينجح في حياته.. امتنع عن شرب الخمر حتى أصبحت نفسه تغثى كلما رأى كأسًا.. وقطع ما بينه وبين سنية الراقصة، وإن كانت ذكراها لا تزال تتردد على رأسه بين الحين والحين..

وتوقف قليلًا عندما تذكر سنية..

إنها المرأة الوحيدة التي لم تكلفه شيئًا.. شيئًا من عواطفه، ولا شيئًا من ماله.. لقد فرض نفسه على حياتها عندما أراد، وطردها من حياته عندما أراد، فلم تعانده عندما جاء، ولم تحتج عندما انسحب.. كانت كالشاطئ الجدب لا يملك شيئًا إذا جاءته أمواج الحياة أو انحسرت عنه..

إنه لا يستطيع أن يكرهها.. ولا أن يحقد على أيامه معها.. بل إنه منذ تركها وهو يتتبعها في إعلانات الصالات.. ولا يزال إلى اليوم وبعد أن وصل إلى مركزه الكبير، يواظب على قراءة إعلانات صفية حلمي، وإحسان عبده، وليلى الشقراء، ويبحث فيها عن اسم سنية.. وكان يراه مكتوبًا بحروف صغيرة بين أسماء بقية الراقصات، ثم بدأ يبرز حتى ارتفع فوق كل الأسماء بحروف ظاهرة ضخمة.. وقد تعود خلال ذلك أن يتصفح المجلات الفنية وكأنه يبحث عن صورة لها.. وقد مضت سنوات قبل أن يرى صورتها، وقبل أن تتردد هذه الصورة في بقية المجلات كنجمة لامعة من نجوم الرقص.. وقد تتبع باهتمام التطور الكبير الذي طرأ على حياتها.. على ذوقها في اختيار ثيابها، وعلى الأصباغ التي تصبغ بها وجهها، وعلى الحركات الرشيقة التي تبدو بها في الصور.. لقد أصبحت امرأة أخرى!

نجحت سنية كما نجح هو..

وهو لا ينكر أنه مرت عليه فترات فكر خلالها أن يعود إليها.. فترات كان يضيق فيها بالحياة، أو ينوء جسده

بالحرمان، أو يشتد فيها حقده على الدنيا وعلى نفسه وعلى المجهود العنيف الذي يبذله ليعد نفسه لمستقبله.. وقد كانت سنية في حياته هي المنفذ الذي ينفث فيه ناره كلما استعرت في أعصابه النار، وهي الجسد الذي يلقي عليه حقده وينتقم منه كلما أعجزه أن ينتقم من الدنيا..

إن فضلها عليه في التخفيف عن أزمته النفسية، التي أعقبت زواج سميحة، لا يقل عن فضل الدكتور عزمي عندما أنقذه من مصرانه الأعور المنفجر!!

ولم يذهب إلى سنية أبدًا، ولم يحل بينها وبينه إلا إرادته القوية، وعناده العنيف مع نفسه..

واستمر يستعرض حياته..

إن كل شيء سار كما أراد له أن يسير.. لقد نجح في دراسته ونجح في الحياة، وخطب فتاة يتمناها كل شاب ناجح.. وسارت إجراءات الخطوبة والزواج إلى اليوم في هدوء ونظام، وتحقق كل رقم حسب حسابه، وكل خطوة قدر له أن يخطوها.. ولم يفقد خلال فترة الخطوبة احترامه لدرية خطيبته ولا إعجابه بها، بل ازداد كل يوم احترامه وإعجابه.. وكانت دائمًا تحقق له كل ما يريده وكأنه لا يريد إلا إرادتها، ولم يلمح منها ترددًا إلا عندما اقترح عليها أن يؤثثا غرفتين للنوم.. واحدة لها، وواحدة له!!

ولم يكن هو نفسه قد فكر في هذا الاقتراح، إنما وجد نفسه يقترحه وكأنه فكر فيه طويلًا، ولم يستطع عندما لمح التردد على وجه درية أن يتراجع، إنما قال كأنه يحاول أن يقنع نفسه:

- أصلي خايف أكون باشخر وأنا نايم.. وأقلقك!!

وابتسمت درية ابتسامتها الهادئة الحنون، وقالت في صوت خجول:

- كلها يومين واتعود على الشخير!!

وعاد يقول في حماس:

- أنا قريت في مجلة أمريكاني إن كل واحد لازم ينام في أودة لوحده.. علشان شكل الرجالة وهم نايمين بيكون وحش وستاتهم بتكرههم من كده.. وعلشان كمان يفضلوا مشتاقين لبعض، أحسن ما كل واحد يضايق من جسم التاني بعد سنة ولا اتنين.. و..

وقاطعته درية وهي لا تزال محتفظة بابتسامتها الهادئة وصوتها الخجول:

- أنا كمان قريت المجلة دي.. ومقتنعة جدًا!!

ولم يكن قد قرأ شيئًا.. وكان مؤمنًا بأن درية أيضًا لم تكن قد قرأت شيئًا..

ولكنه استراح عندما أقرت درية اقتراحه..

لماذا؟

إنه لا يكره أن ينام العمر كله مع درية.. وقد نشأ وأبوه وأمه ينامان في حجرة واحدة وعلى سرير واحد ورغم ذلك لم يسأم أحدهما الآخر.. إذن لماذا تحمس لاقتراحه كل هذا الحماس وتمسك به؟

هل أصبح لا يستطيع أن يتنازل عن وسادته الخالية.. الوسادة التي رسم عليها بخياله رأس سميحة، وتعود أن يحتضنها بين ذراعيه منذ تسع سنوات، كلما عاد إلى فراشه ونام؟

وقال لنفسه: ربما!!

وقام يرتدي ثيابه ليذهب إلى عروسه ويكتب الكتاب.. وكأنه ذاهب ليحقق أمله الوحيد الذي لم يحققه في حياته!!

وجلس بين المدعوين، وكلما سقطت ابتسامته عن شفتيه عاد والتقطها..

كان سعيدًا سعادة الرجل الذي أتم عملًا ناجحًا يحسده عليه الناس!

وأمسك بيد درية وضغط عليها برفق، وأبقاها في كفه الكبيرة بينما المأذون يتلو الصيغة المعتادة كأنه يعلن ميلادًا جديدًا..

وفي هذه اللحظة، أحس حقًا بالسعادة.. ونسي للحظة خاطفة أنه رجل ناجح يؤدي عملًا ناجحًا.. ولم يعد يذكر إلا أنه يتزوج!!

وانتهت مراسم العقد..

واختلى بعروسه يقبلها فوق جبينها ثم انحنى بشفتيه يقبلها فوق شفتيها.. ولم تكن قبلته فوق الشفتين أشد حرارة من قبلته فوق الجبين.. كلتاهما ملؤها الاحترام والسعادة الهادئة الوقور..

ومدت له يدها اليمنى والسعادة تمرح في عينيها، فخلع من أصبعها دبلة الخطوبة ووضعها في أصبع يدها اليسرى لتصبح دبلة زواج..

ثم انحنى يقبل يدها..

ونظرت إلى يده اليمنى.. فابتسم، وخلع بدوره دبلة الخطوبة، وبدأ يضعها في أصبع يده اليسرى..

والتقت عيناه بالدبلة الفضية.. الدبلة التي تحمل اسم سميحة وتاريخ أول لقاء لهما..

وضغط على أعصابه حتى لا يبدو عليه تردد.. ووضع الدبلة الذهبية فوق الدبلة الفضية..

وحاول بذلك أن ينهي الموقف.. ولكن درية ظلت تنظر إلى يده.. إلى أصبعه الذي يحمل فيه الدبلتين!!

وافتعل ابتسامة وقال وهو يحس بكذبه:

- دي دبلة فضة كانت نينة جابتها من الحجاز.. وبقالها في إيدي سنين طويلة، ومتفائل بيها.. أظن ما فيش مانع أخليها!

وقالت درية وكأنها فقدت نصف سعادتها:

- لأ.. أبدًا!!

وتركته لتبدل ثوبها..

وعاد إلى بيته ليلبس الحلة «الفراك» استعدادًا لسهرة الزفاف.. ذهب في عجل، وارتدى حلته على عجل.. وكأنه يخشى أن يفوته موعد هام.. موعد مع سميحة!!

ووقف بجانب عروسه يستقبل المدعوين..

كان يبدو في حلته السوداء كعامود الدخان.. طويلًا جدًا.. رفيعًا جدًا.. كأنه ظل الإله «نرسيس» على الأرض. ولكنه لم يغتر بجماله كما اغتر «نرسيس» عندما رأى صورته منعكسة على صفحة الماء. بل لم يحاول أن يرى صورته منعكسة في أعين المدعوات وهن ينظرن إليه في عبادة صامتة.. إنما أخذ يتلفت إلى الباب يبحث بعينيه عن سميحة..

وجاء الكثيرون والكثيرات ولكن سميحة لم تظهر..

وأخيرًا جاء الدكتور فؤاد..

جاء وحده..

ونظر إليه صلاح في استنكار كأنه يصرخ في وجهه يسأله: أين سميحة؟!

وتقدم فؤاد يهنئ العروسين تحيط به شخصيته القوية ورجولته الناضجة، واعتذر عن زوجته بأنها شعرت فجأة بصداع حاد..

ولم يرد صلاح على هذا الاعتذار، وكأنه لم يقبله.. وسكت وكأن كل شيء فيه قد سكت!

ولم ير بعد ذلك أحدًا من الوافدين إلى الحفل.. إنما كان يصافحهم دون أن يراهم، ويرد على كلمات التهنئة دون أن يسمعها.

هل حقيقة أن سميحة تشعر بصداع؟! إنها كذبة كبرى!! ولكنها لو كانت تكذب فمعنى كذبها أنها لا تزال تذكر.. لا تزال تحبه.. وأن حبه لا يزال متمكنًا منها حتى أنها لا تستطيع أن تواجهه في ليلة زفافه!

من يدري!! ربما منعها زوجها عن الحضور.. ومعنى هذا أنه يعلم، وأنه كان دائمًا يعلم بما كان بينهما.. لم لا؟ إن فؤاد لم يحاول أن يقدمه أبدًا إلى زوجته رغم المناسبات الكثيرة التي كان يمكن أن يقدمه خلالها إليها.. ولم يحاول أن يدعوه أبدًا إلى بيته رغم أنه كان يدَّعي أنه صديق العائلة لا طبيبها فحسب..

هل يعلم فؤاد؟ إنه لا يدري!!

وتاه فترة في خواطره الصامتة، إلى أن جذبته عروسه ليطوف معها على المدعوين..

ونسي خواطره في زحمة الحفل ومجاملات الأصدقاء..

واختفت العروس لترتدي ثوب العرس.. وطال وقوفه بين المدعوين حتى تعب من المجاملات، وتعب من ابتسامته المعلقة على شفتيه، وتعب من ياقة القميص الجافة التي تحيط بعنقه، وتعب من حذائه اللامع الجديد.. وخيل إليه أنه يريد الفرار، يريد أن يعود إلى

بيته، ليخلع ابتسامته وحلته وحذاءه وياقة القميص.. ويلقي بنفسه على فراشه ويحتضن الوسادة الخالية!!

ونودي عليه ليقف بجانب العروس استعدادًا للزفة..

ودخل إلى حيث كانت العروس..

ووقف مبهوتًا..

هل هذه هي درية؟!! كل هذا الجمال، وكل هذه الروعة، وكل هذه البراءة الحلوة.. وهذا الشعاع الذي تنفرج عنه ابتسامتها، وهذا الضياء الذي يطل من عينيها.. وهذا القوام الملفوف في دقة كأن الله قد استغرق في صنعه خمسة أيام، ثم صنع الدنيا كلها في يوم واحد..

إنه يعلم أن درية جميلة.. ولكنه لم يكن يعلم أنها بهذا الجمال..

ماذا صنع بها ثوب العرس؟!

وكاد يخر على ركبتيه ساجدًا للجمال.. وتعلقت عيناه بها كأنه المأخوذ.. لا يستطيع أن يقترب منها ولا أن يبتعد عنها.. ثم تمالك نفسه وتقدم نحوها صامتًا وقدم ذراعه لها في تردد وكأنه يخشى أن يلمسها فيفسد جمالها..

ونظرت إليه درية وهي ترى في عينيه أنفاسه المبهورة.. واتسعت ابتسامتها كأنها كانت واثقة أنها تستطيع أن تبهره.

ولم يسمع ضربات الدفوف من حوله، فقد كانت ضربات قلبه أعلى منها في صدره..

ولم يسمع صوت المطربات وهن ينشدن «اتمختري يا حلوة يا زينة» فقد كان قلبه يزغرد بين ضلوعه حتى لم يعد يسمع شيئًا سوى زغاريد قلبه..

وسار بجانبها كأنه يسير فوق السحاب..

وجلس معها في الكوشة، كأنه جالس على باب الجنة منتظرًا الإذن بالدخول..

والتفت إليها وظلت عيناه معلقتين بجمالها..

ومن خلال أعمدة الجمال التي تحيط به، سمع طنينًا هادئًا يأتي من ماضيه البعيد ثم يقترب ويشتد حتى يملأ أذنيه..

ودار رأسه وسط هذا الطنين، حتى أحس كأنه غمامة تنسدل فوق عينيه، ومن خلال هذه الغمامة رأى صورة سميحة!!

رآها كما رآها أول مرة، وهي في الخامسة عشرة من عمرها!

رآها في ثوب العروس بجانبه!!

واهتزت رموشه بسرعة وعنف، كأنه يبعد بها الغمامة من أمام عينيه، ويطرد صورة سميحة التي ارتفعت في خياله..

وكأنه أفاق..

وعاد يرى عروسه بكل جمالها وكل روعتها..

ولكنه ظل يسأل نفسه: ترى.. لو كانت سميحة هنا، ماذا تفعل؟!

هل كانت تخالجها نفس الأحاسيس العنيفة التي خالجته يوم زفافها! هل كانت تفكر في أن تهجم عليه أمام المدعوين، وتصرخ: هذا الرجل لي؟! هل كانت تبكي؟! هل كانت تجن؟!!

وبدأ المدعوون ينصرفون، وانصرف مع عروسه إلى بيت الزوجية الذي أعداه، وكان فكره لا يزال يتردد بين جمال عروسه وبين ماضيه الذي يلاحقه.. ماضيه الذي يتمثل في حبه الأول!

ووجد نفسه مع عروسه..

وحدهما..

في غرفة النوم..

كانت وديعة رقيقة.. خفت الضوء في عينيها في استسلام لذيذ حتى أصبح كلحن من ألحان التانجو الهادئة.. وتهافتت ابتسامتها فوق شفتيها كأنها تريد أن تنام بين شفتيه.. ومال قوامها كأنها لم تعد تقوى على الوقوف ولا تجرؤ على الجلوس.. كانت كالوردة البيضاء تفتحت أوراقها حتى ثقل بها غصنها فدعته إلى قطافها!!

وشعر بهيبة.. وشعر بقلبه يضرب بشدة.. وشعر كأن ألف «دفاية» قد أحاطت به وسرت سخونتها في

جسده.

ولم يستطع أن يصبر على ياقة قميصه الجافة.. فنزعها من حول عنقه، وهو يحاول أن يبدو طبيعيًا وقال وكأنه يبتسم:

- لو كان الناس تتجوز من غير ياقة منشية، مش كان يبقى أحسن؟!!

وابتسمت درية..

والتقى بابتسامتها، فلم يطق صبرًا على سترته، فخلعها وألقى بها على أحد المقاعد في إهمال عصبي.. ثم خيل إليه أنه يبدو مضحكًا وهو مرتد الصديري.. فخلع الصديري.. وخيل إليه أنه يبدو أشد إثارة للضحك وحمالتا سرواله فوق كتفيه.. فنزع الحمالة..

وعاد ينظر إلى درية، كأنه طفل ينتظر أن تؤنبه أمه على أفعاله!!

وتمنى لو استطاع أن يجرع كأسًا واحدة من الويسكي، ليشد به أزره، وليقدم على قطف الوردة البيضاء!

وجلس على «الشيزلونج» وهو لا يزال يحاول أن يبدو طبيعيًا.. ثم مد ذراعه والتقط به درية، وجذبها برفق لتجلس بجانبه..

وأطال النظر إليها صامتًا، كأنه يشرب منها بعينيه.. ثم مد يديه في بطء وبدأ يرفع طرحة الزفاف عن رأسها..

وقالت درية في ضعف خجول:

- ده أنا هلكت النهاردة يا صلاح.. من الصبح واقفة على رجليّة!!

ولم يرد صلاح، وحمل عن رأسها طرحة الزفاف ووسدها برفق واحترام كبير على جانب الشيزلونج وكأنه يحمل بين يديه التاج المقدس.. ثم عاد إليها ورفع يده يزيح بها خصلة من الشعر سقطت على جبينها..

وقالت درية كأنها تريد أن تشغله عنها بأي شيء:

- شفت الهدية اللي بعتها أونكل عزيز؟.. جنان!

ولم يرد صلاح أيضًا، وعاد يشرب من جمالها بعينيه.. ثم اقترب منها بوجهه وأراح خده على خدها.. وأحس ساعتها بأنفاسه تهدأ.. كل شيء فيه يهدأ، وكأنه عاد من سفر بعيد شاق وألقى بنفسه فوق خدها..

وسكتت درية.. لم تحاول أن تشغله عنها بشيء.. وأحست بالراحة كأنها هي الأخرى تريد أن تنام فوق خده..

ولم تطل راحته وراحتها سوى برهة خاطفة، أحس بعدها بدمائه تتحرك في عروقه ساخنة هادئة كأنها نهر النشوة.. فحرك خده فوق خدها، وكلاهما مغمض العينين، لا يريان سوى خيالهما..

وبحثت شفتاه عن شفتيها حتى التقت بهما في قبلة ساذجة بريئة وكأن كل شفة تعرف نفسها بالأخرى..

ثم بدأت الحياة تسري في الشفاه.. وكأن كل شفة تراقص الأخرى رقصة هادئة على نغم الجيتار.. ثم تسارعت الأنغام فرقصت الشفاه على ألحان الفالس.. ثم الرومبا، ثم البوجي ووجي!!

وأحاطت بهما موسيقى عنيفة مجنونة، فمد ذراعيه وضمها إليه في لهفة كأنها قسوة، وفي شوق كأنه انتقام.. واصطدمت كفاه بأزرار ثوبها المصطفة خلف ظهرها، فأخذ يحلها بأصابع ملهوفة وكأنه ينزعها نزعًا..

واشتعلت النار في العروس، حتى نزعت عنها ثوبها المقدس.. وقام وحملها بين ذراعيه وهي تخفي وجهها في عنقه وعيناها مغمضتان،
لا تريد أن تفتحهما حتى لا تبتعد عن أبواب الجنة..

وأذن سيدنا رضوان لهما بالدخول..................

ونامت على ضوء الفجر ملتفة بجمالها متوسدة ابتسامتها كأنها الوردة الحمراء!!

ولم ينم.. إنما سحب نفسه من جانبها وذهب إلى الغرفة التي أعدت له لينام فيها وحده..

كان سعيدًا.. كان يحس أنه أسعد رجل في العالم، وأقوى رجل في العالم، كان يريد أن يصرخ كطرزان ينادي الناس ليشهدوا سعادته وقوته ونجاحه..

واحتضن الوسادة الخالية بحكم العادة.. ولكنه عاد وأبعدها عنه كأنه تذكر شيئًا قد نسيه..

ونظر إلى الوسادة، فرأى صورة سميحة التي رسمها خياله فوقها..

وأحس بالضيق.. ثم أحس بشيء كالتشفي.. التشفي من سميحة.. فقد كان يمكن أن تكون كل هذه السعادة لها، لو انتظرته، ولو لم تتزوج من غيره..

وأدار ظهره للوسادة كأنه يغيظها.. وحاول أن ينام.. ولكنه لم يستطع النوم..

كان قد تعوّد أن ينام والوسادة الخالية بين ذراعيه..

* * *

وسارت الحياة بالزوجين.. هادئة رتيبة منتظمة.. كل شيء في مكانه، وكل شيء في وقته.. ولم يحدث في حياتهما أي خطأ..

لم يحدث إلا خطأ واحد..

يوم نسي دبلتيه الذهبية والفضية على حوض الحمام!

7

واكتشف صلاح أنه نسي دبلتيه الذهبية والفضية، بعد أن وصل إلى مكتبه..

واحتار ماذا يفعل؟!

خشي أن يعود إلى البيت باحثًا عنهما فيثير الشك من حوله، وفضل أن ينتظر حتى يعود في موعده المعتاد، وخيل إليه وهو في انتظاره أن موعد عودته لن يأتي أبدًا.. كانت عقارب الساعة كأنها واقفة، وكان لا يستطيع أن ينظر إلى الأوراق التي أمامه أو يؤدي عملًا، وأحاطه فراغ كبير مزعج، تتضارب فيه أوهامه وأحاسيسه.. ورأى بعين الوهم أن درية قد دخلت الحمام والتقطت الدبلتين، وقلبتهما بين يديها، ثم قرأت اسم سميحة داخل الدبلة الفضية، ثم صرخت وأغمي عليها!! وربما لم يغمَ عليها، إنما اكتفت بأن قلبت شفتيها احتقارًا، ثم ذهبت إلى حجرتها وجمعت بعض حوائجها وغادرت البيت إلى بيت أهلها!!

ماذا يفعل لو تركته درية؟

لا.. لن تتركه.. إنها لا تستطيع أن تحاسبه على عواطفه.. لقد كان دائمًا زوجًا مخلصًا ولم يقصر أبدًا في حق من حقوقها، فبأي ذنب تتركه؟ وأحس أن كل ما يخشاه هو احتقار درية له.. إنها ستحتقره لأنه كذب

عليها، ولأنه يحتفظ باسم فتاة أخرى في أصبعه.. في نفس الأصبع الذي يحمل اسمها..

ثم ماذا يقول للناس إن تركته زوجته؟ هل يروي لهم القصة كلها، وهل يصدقونه، وهل يقفون بجانبه ويؤمنون بأنه زوج مخلص مظلوم؟!

وهل الإخلاص هو إخلاص الجسد وحده؟! أم هو إخلاص الفكر والقلب والروح؟!

ثم ماذا تقول سميحة عندما تسمع أن زوجته قد تركته؟ لابد أنها ستحمد الله لأنها لم تتزوجه، وستحمد الله لأنها تزوجت الدكتور فؤاد، وربما هرعت عقب سماعها الخبر وقبلت زوجها الذي يتمثل فيه حسن حظها!

وأحس بالضيق، وتوترت أعصابه حتى بدأت تتمزق، وبدأ يثور في وجه كل من يدخل إلى مكتبه.. شخط في الساعي وكاد يطرده من خدمته، وهو لم يتعود أبدًا أن يشخط في أحد.. واستقبل زائريه استقبالًا باردًا بوجه مكفهر وكأنه يطردهم، وكان دائمًا حلو الاستقبال واسع الصدر كريم الخلق، حتى انصرف عنه الزائرون دون أن ينهوا أعمالهم وعلى وجه كل منهم علامة تعجب..

ولم يستطع أن يبقى في مكتبه حتى موعد عودته.. كانت جدران المكتب تكاد تنطبق على صدره، فخرج وركب سيارته وأمر السائق أن يتوجه إلى «جروبي»،

وأخذ يتلكأ هناك ويشتري بعض الحلوى، ثم نظر إلى ساعته فإذا بموعد العودة لم يأت بعد، فعاد وركب سيارته وأمر السائق أن يذهب إلى «لا باس»، وتلكأ هناك مرة ثانية واشترى بعض أصناف البقالة.. ولم يكن الموعد قد حان بعد، فأخذ يتمشى في شارع قصر النيل، ويتفرج على واجهات الحوانيت وهو لا يرى فيها شيئًا إلا وجه زوجته درية والدبلتين الذهبية والفضية في يدها.. صورة يعكسها خياله!!

وأخيرًا عاد إلى البيت..

وصعد السلم مترددًا واجفًا كأنه مجرم يتقدم إلى قاعة المحكمة..

وأدار مفتاحه في قفل الباب في هدوء كأنه لص لا يريد أن يسمعه أو يراه أحد..

ودخل.. وتلفت بعينيه في البهو الكبير فلم ير أحدًا.. وأسرع الخطى متجهًا مباشرة إلى الحمام وعيناه تسبقانه إلى الرف المعلق فوق الحوض.. واتسعت عيناه في فزع عندما لم ير الدبلتين.. وأخذ يرفع كل شيء من فوق الرف بيدين مجنونتين باحثًا تحته عن الدبلتين.. ثم أخذ يدير عينيه الفزعتين في أرجاء الحمام.. ثم فجأة.. التقت عيناه بدرية وهي واقفة مستندة على باب الحمام وبين شفتيها ابتسامة لم يفهم لها معنى..

ونظر إليها صامتًا، وقد امتقع وجهه في انتظار الحكم.

وقالت درية في غضب رقيق:

- أنا زعلانة النهاردة يا صلاح..

وازداد امتقاع وجهه وقال كأنه يلهث:

- زعلانة مني أنا؟!

وقالت وابتسامتها لا تزال بين شفتيها:

- أيوة.. علشان نسيتني!

قال وهو لا يستطيع بعد أن يحدد موقفه:

- أنا عمري ما أنساكِ يا درية!

قالت:

- ما دام نسيت دبلة جوازنا، تبقى نسيتني!

واستراح صلاح قليلًا، وقال وهو يحاول أن يبتسم:

- كنت لسه بادور عليها دلوقت.. ده أنا اضايقت النهاردة طول النهار لأني نسيتها، وقعدت متشائم لدرجة إني ما عرفتش اشتغل.. هيه فين؟!

وقالت درية وابتسامتها واقفة فوق شفتيها لا تتسع ولا تضيق:

- جنب السرير بتاعك.. هيه والدبلة التانية!

ونكس رأسه متظاهرًا بأنه يغسل يديه، وقال:

- الحمد لله.. كنت خايف إني مالقهاش!!

وقالت درية وهي تنظر إليه:

- إنت مالك؟! لونك مش عاجبني..

- أبدًا.. بس تعبت في الشغل النهاردة..

وجفف يديه، ثم اتجه إلى غرفته وهو يتئد في خطاه حتى يبدو هادئًا.. وما كاد يرى الدبلتين بجانب سريره حتى التقطهما في لهفة كأنه يقبض على دليل الاتهام الوحيد الذي يدينه..

وأخذ ينظر إلى الدبلتين قبل أن يضعهما في أصبعه.. وفكر أن يضع دبلة واحدة ويخفي الثانية حتى لا تتكرر المأساة.. فكر أن يخفي الدبلة الفضية.. ولكن شيئًا قبض قلبه، وكأن ماضيه كله قد ثار عليه لمجرد الفكرة، فتعلل بأنه لا يستطيع أن يخفيها حتى لا يثير شبهات زوجته التي تعودت أن ترى في أصبعه دبلتين، وتعلل بأن هذه الدبلة الفضية قد صاحبته كل حياته، ولن يستطيع أن يلقي بها لمجرد حادث عارض.. إنه يتفاءل بها.. هكذا أقنع نفسه!

وسمع صوت درية يأتي من خارج الغرفة وهي تصيح دهشة:

- إيه ده كله يا صلاح!!

وتذكر أن السائق لابد قد صعد حاملًا الحلوى وأصناف البقالة التي اشتراها من جروبي ولاباس.. وخيل إليه أنه ارتكب خطأ كبيرًا، فهو لم يتعود أبدًا أن يشتري شيئًا ويعود به إلى البيت.. بل منذ أن تزوج لم يشتر شيئًا أبدًا حتى لنفسه.. فلابد أن هذه المشتروات ستثير ريبة زوجته وشكوكها..

وخرج إليها وفي رأسه ألف كذبة يختار بينها، وقال وهو يضبط مخارج ألفاظه حتى لا يفضحه اضطرابه:

- أصلي خرجت من المكتب بدري مع الأستاذ سامي مدير الحسابات.. ولقيته رايح جروبي، رحت معاه.. واشترى حاجات للبيت، قلت اشمعنى أنا ما اشتريش.. وبعدين رحنا لاباس واتمشينا شوية في شارع قصر النيل!

وابتسمت درية ابتسامة صغيرة، قائلة:

- لازم الأستاذ سامي ده، زوج مثالي جدًا!!

واستطرد صلاح في كذبه:

- وأما شفت حتة «بروش» عند ليسكوفتش.. صممت إني أشتريه لك، إنما قلت لازم تشوفيه بنفسك، يمكن ذوقي ما يعجبكيش!!

وقالت درية في صوتها الطيب الحنون:

- طول عمري اللي يعجبك بيعجبني.. وعلى فكرة.. ابقى اخرج كل يوم من المكتب مع الأستاذ سامي!!

ولم يدر صلاح إن كانت درية تتكلم ببراءة، أم أنها تخفي معنى آخر وراء كلماتها..

ومر اليوم بسلام.. أو هكذا خيّل إلى صلاح..

وصمم في اليوم التالي على أن يشتري لها «البروش» الذي ادعى إنه رآه عند ليسكوفتش.. وكأنه أراد أن يكفر به عن سيئاته!

* * *

وعادت الحياة تسير رتيبة هادئة بين الزوجين..

كان زوجًا كاملًا، ما دام أحد لا يعرف ما يدور في صدره، وما دام لا يفصح لأحد عن عواطفه!!

كان لا يخرج من مكتبه إلا إلى بيته وإن لم يتوجه إلى مكتبه

فلا يخرج إلا مع زوجته.. وكان دائمًا معجبًا بها.. معجبًا بشخصيتها القوية، وجمالها الزاهي، والضياء الذي يشع من عينيها والنور الذي تحمله ابتسامتها، وحديثها الحلو الذي يفرض عليك احترامها.. ولم يبخل عليها أبدًا بشيء.. قبلاته كانت تزداد حرارة يومًا بعد يوم ولهفته الرقيقة عندما تضمهما الوحدة لم تفتر أبدًا ولم تبرد، وكأنه في كل مرة يلتقي بها لأول مرة..

ولكنه كان ينسحب من جانبها كل مساء ليذهب إلى غرفته ويحتضن الوسادة الخالية..

وقد مرت عليه ليالٍ لم يرَ فيها فوق الوسادة الخالية صورة سميحة التي يرسمها بخياله، ولكنه كان يعود ويراها في ليالٍ أخرى؛ ويذكر أيامه معها.. يذكر أيام كان يمر أمام بيتها دون أن يرفع رأسه إلى النوافذ والشرفات، ثم ينحرف في الشارع الجانبي ويسير فيه، إلى أن تلحق به وتضع يدها الصغيرة في كفه الكبيرة دون أن تحييه، وكأنهما لم يفترقا أبدًا ليعودا ويتبادلا التحية.. ويذكر جلساته معها في موضعهما من

الصحراء، وحديثهما الساذج البريء الذي طال حتى فطماه على القبل.. إنه لا يزال يذكر قبلته الأولى، بل لا يزال يحس بها فوق شفتيه.. يحس بحرارتها التي صهرت كل ما فيه من شرور ومن عبث الشباب، وأحالته رجلًا كاملًا يرتفع بنفسه عن العبث..

ثم هو يذكر يوم أعلنت خطبتها إلى الدكتور فؤاد، ويوم امتنعت عن لقائه، فاستحال إنسانًا مجنونًا حتى فكر في الجريمة.. فكر أن يعتدي عليها ليغتصب حقه منها.. ترى ماذا كان يكون مصيرهما اليوم لو نفذ فكرته وارتكب جريمته؟ ربما كان أهلها قبلوا زواجها به سترًا للفضيحة.. ولكن هل ينجح زواج يقوم على الجريمة؟!

وكان يتقلب على هذه الذكريات كأنه يتقلب على أشواك غرستها الأيام في عمره.. ثم يخيل إليه أنه ليس سعيدًا في زواجه سعادة كافية، وأنه لو كانت زوجته سميحة لكانت حياتهما أكثر مرحًا، وأكثر نشاطًا.. حياة مليئة بالحياة.. ليست رتيبة ولا هادئة، ولا تقوم على هذا الإعجاب الصامت وهذا الاحترام الذي يكنه لدرية.. كانت تكون حياة مشتعلة.. يشعلها الحب.. وتشعلها النشوة.. الحب العنيف المجنون بكل ما فيه من غيرة ومن شك.. والنشوة الصارخة التي لا تكل
ولا تتعب ولا تخمد.. حياة لها أخطارها.. ولذة الحياة في أخطارها..

وكانت هذه الأوهام تصحبه أحيانًا في نهاره، فيرى الثوب الجديد الذي ترتديه زوجته كأنه يراه على جسد

سميحة، ويرى البيت الذي يعيش فيه كأنه أعد لسميحة، ويرى حياته كلها كأن سميحة تشاركه فيها.

وكانت الأوهام تستبد به أحيانًا أخرى حتى يخيل إليه أنه يريد من زوجته أن تبدو جميلة ليغيظ بها سميحة، ويريد أن يكون زوجًا كاملًا ليملأ قلب سميحة بالغيرة والحسد والندم.. وكان يذهب إلى دور السينما مع زوجته فيدير عينيه باحثًا عن سميحة، ويذهب إلى حفل فيفتش بين المدعوين عن سميحة، ويدعو الدكتور فؤاد إلى بيته لعله يأتي ومعه زوجته سميحة..

ورغم ذلك مر عامان، وحياته الزوجية تمر هادئة رتيبة.. لم تشعر خلالها زوجته أنه ينقصها شيء، ولم يشعر أنه ينقصه شيء..

لم يفكر خلال العامين أن يغيب عن درية يومًا واحدًا في غير أوقات العمل..

ولم يفكر خلال العامين أن يبدي تبرمًا يثير مناقشة مع درية..

ولم يفكر خلال العامين في الندم على زواجه..

واطّرد نجاحه في الحياة، ودرية دائمًا بجانبه، والذين يعرفونه يزدادون له حبًا، والذين لا يعرفونه يزدادون له حسدًا، يحسدونه على نجاحه، ويحسدونه على درية..

وحملت درية في طفلها الأول في العام الثالث من زواجهما.

وحان موعد الوضع..

وذهبت درية إلى المستشفى في ساعات الليل الأخيرة وهي تخفي رجفتها وراء آمالها، وتخفي آلامها وراء ابتسامة ضعيفة لا تقوى شفتاها على حملها..

وكان معها صلاح يحيطها بذراعيه ويكاد يرفعها بهما عن الأرض.. وكان هو الآخر يحاول أن يبتسم، ويحاول أن يقول شيئًا.. ولكنه لم يستطع أن يبتسم أو يتكلم، إنما أحس بقلبه يكاد يقفز من حلقه، وأحس بأعصابه تتلوى كأنها تعصر نفسها شفقة على درية، وأحس بدمائه تضطرب وتتسارع في عروقه كأنها في زحام لم تعد تتسع له العروق.. واتسعت عيناه وأطلت منهما نظرة متسائلة ملهوفة تبحث عن الطبيب.

ووسدها فوق فراش المستشفى، وجلس بجانبها وقد اشتد به القلق حتى ابتسمت له مشجعة، وهي في أشد الحاجة لمن يشجعها..

وبدأ العذاب..

وحاولت أن تكتم عذابها حتى لا تزعج به صلاح.. وقاومت كثيرًا، أكثر مما تحتمل، ثم لم تستطع، فصرخت..

وقفز صلاح من كرسيه كأن شيئًا قد تمزق في صدره ونظر إليها في توسل كأنه يرجوها أن تبعد عنها العذاب..

وصرخت مرة ثانية.. وكأن كل شيء فيها يصرخ..

واشتد القلق في عيني صلاح، ونظر إليها كأنه يتوسل إلى العذاب أن يبتعد عنها..

وتوالت الصرخات..

وهجم صلاح على الطبيب يهزه من كتفيه ويصرخ:

- اعمل حاجة يا دكتور.. إديها حقنة.. ما تخليهاش تتعذب كده!!

وابتسم الطبيب هادئًا وقال في برودة:

- ما فيش ولادة من غير صريخ.. الأم تفضل تصرخ لغاية المولود يبتدي يصرخ.. ده الطريق الطبيعي.. ودي حكمة ربنا!!

ولكن طريق العذاب طال حتى أصبح الصباح..

ولم تعد درية تقوى على الصراخ.. فسكتت كأنها لم تعد تتنفس.. وبدأ العرق البارد يتفصد في سرعة من فوق جبينها كأنه قطرات من حياتها.. ثم بدأ وجهها الأصفر المكدود يطغى عليه لون أزرق، كأن الليل الأبدي يزحف فوقه..

واعتلت وجه الطبيب علامات الخطورة..

وارتسم الرعب في عيني صلاح، وجمدت نظراته كأنه مجنون.

وحركت درية شفتيها في ضعف، ومدت يديها كأنها تبحث بهما عن شيء، ثم أمسكت بيد صلاح.. وتخشبت

يدها فوق يده وقالت كأنها تتكلم من بعيد.. من بعيد جدًا:

- أنا حاموت يا صلاح..

وتمتم صلاح فزعًا وقد بدأت دموعه تتساقط فوق وجنتيه:

- ما تقوليش كده يا درية..

وأشارت إليه أن يقترب ليسمعها، وقالت بصوتها البعيد:

- قبل ما أموت.. عايزة أقولك إني كنت أسعد زوجة، مع أنك ما قدرتش تحبني!!

وأفاق من فزعه ليسقط في فزع آخر، وكأن مطرقة ضخمة سقطت فوق رأسه.. وحاول أن يتكلم.. أن يصرخ.. ولكنها عادت تشير إليه أن يسكت ليسمعها:

- أنا عارفة كل حاجة يا صلاح.. وعارفة إنك كنت بتعمل المستحيل علشان تسعدني و.. و..

وسقط رأسها على الوسادة، وسكتت..

وصرخ صلاح، وأسقط رأسه بجانب رأسها كأنه يحاول أن يغسلها بدموعه:

- درية.. درية.. ما تسبينيش يا درية.. أنا بحبك.. طول عمري باحبك.. ما تصدقيش إني حبيت واحدة تانية.. اسمعيني يا درية..

ولم تسمع درية شيئًا..

ولمس الطبيب كتفه ليبعده عنها.. ثم نقلوها على عربة إلى غرفة العمليات..

وظل يتابع العربة بعينيه الفزعتين وهو يتمتم في صوت لا يُسمع: درية.. درية..

وعندما اختفت العربة من أمام عينيه، سقط جسده مرتكنًا على الجدار، وأخذ يبكي في نوبة هستيرية، وكأنه طفل تركوه وحده في العالم كله..

وطالت نوبته الهستيرية، حتى سقط على مقعد صامتًا..

ولم يعد يبكي..

وتوقف تفكيره.. لم يعد يدري كيف يفكر، ولا من أين يبدأ التفكير.. إنما ظل متجهًا بعينيه إلى باب غرفة العمليات في صمت، وكأنه نسي أيضًا ماذا ينتظر من وراء الباب..

ومرت ساعات طويلة، حزينة قاتلة، كأنها ساعة انتظار الحساب يوم البعث..

وأخيرًا، فتح الباب وخرجت عربة فوقها درية..

ومرت أمامه العربة، ونظر إلى درية وهي في غيبوبتها، نظرة ذاهلة كأنه ينظر إلى إنسان لا يعرفه.. ثم لمعت نظراته عندما عرف بحاسته السادسة أنها تتنفس، وكأنه تلقى رسالة من المجهول بالعفو عنه..

ومسحت شفتيه ابتسامة مرت سريعًا كأنها على عجل لتلحق بشفاه أخرى في مثل لهفته وقلقه..

وحاول أن يتبع العربة إلى داخل الغرفة، ولكن الطبيب منعه في رفق ورجاه أن ينتظر خارجًا..

وأخذ يروح ويجيء أمام باب الغرفة في خطوات عصبية، إلى أن عاد إليه الطبيب وقال وهو يغلق الباب وراءه:

- اطمئن.. الخطر زال، والحمد لله، إنما اضطرينا نضحي بالجنين!

وقال صلاح وكأنه رد إلى الحياة:

- متشكر يا دكتور..

ونظر إليه الطبيب مشفقًا ثم قال:

- أظن تروح تستريح دلوقت.. وترجع بالليل تكون الست فاقت من البنج وتقدر تشوفها..

ولم يرد صلاح، وتركه الطبيب واقفًا أمام الباب كما هو..

وأحس أن أعصابه الملتوية بدأت تنفرد، وأن دماءه المتزاحمة بدأت تهدأ، وأن تفكيره بدأ يعود إليه..

وسار في خطوات بطيئة إلى خارج المستشفى، وقد بدا أنه مستغرق في تفكير عميق..

ولم يذهب إلى بيته، بل ترك قدميه تقودانه بلا هدف خلال الطرق الهادئة التي تحيط بالمستشفى.

ولم يكن يرى شيئًا مما يمر به، ولا يسمع شيئًا مما يقذفه الطريق إلى أذنيه.. كان لا يرى إلا وجه درية نحيلًا مصفرًا ملقى على سرير المستشفى، ولم يكن يسمع إلا صوتها يأتي من بعيد.. من بعيد جدًا «أنا عارفة كل حاجة.. إنت ما قدرتش تحبني»..

هل صحيح أن درية عرفت كل شيء؟! عرفت أنه يحب أخرى.. ثم سكتت؟!

كيف عرفت؟! هل قرأت اسم سميحة داخل الدبلة الفضية ثم سكتت؟!

هل توجد مثل هذه المرأة على وجه الأرض.. المرأة التي تحمل كل هذا الشقاء صامتة في سبيل إسعاد زوجها وفي سبيل بيتها؟!

ثم..

هل هو لم يستطع أن يحبها؟!

إنه لم يسأل نفسه أبدًا هذا السؤال، بل إنه منذ تزوج لم يحاول أن يعرف إن كان يحب زوجته أو لا يحبها..

كان معجبًا بها، وكان يحترمها.. ولكنه لم يسأل نفسه عن سر هذا الإعجاب والاحترام، ولم يحاول أن يبحث عن جذورهما في نفسه.. هل هو إعجاب بجمالها، واحترام لتصرفاتها؟! أم إعجاب واحترام مردهما عاطفته، وجذورهما في قلبه؟!

قد لا تكون درية من الجمال إلى حد أن يعجب بها كل هذا الإعجاب.. وقد لا تكون تصرفاتها من الاتزان

والسمو إلى حد أن يحترمها كل هذا الاحترام.. لابد أن هناك شيئًا أبعد من ذلك؟

هل هو يحبها؟

وتذكر لهفته وهو عائد كل يوم من مكتبه إلى بيته، وكيف كان يمل الطريق حتى كأنه يريد أن يطير عائدًا، وتذكر أنه كان يرفض دائمًا أي شيء قد يؤخر عودته ولو ساعة واحدة، وتذكر راحته كلما دخل بيته وكأنه يعود إلى مكانه الطبيعي من الحياة، وتذكر جلساته الطويلة في المساء يقرأ بينما درية تطرز وتمضي الساعات دون أن يمل ودون أن يستطيع شيء أن يبعده عنها وعن بيته، وتذكر كيف كان يثور ثم يكتم ثورته كلما خرجت درية وحدها لزيارة بعض صديقاتها، وكأن الدنيا كلها من حوله قد أصبحت فراغًا منذ تركته وحده..

وتذكر الليالي النشوى التي قضياها كزوجين، لا يمل شفتيها،
ولا يكتفي منها، وتذكر أصابعه تداعب خصلات شعرها، وأنفاسه تتبادل النشوة مع أنفاسها، وجسدها ملتصقًا به وهو يضغطه إليه كأنه يريد أن يدخلها في صدره ويضعها بين ضلوعه..

تذكر.. وتذكر.. وتذكر..

ولكن لماذا لم يسأل نفسه من قبل هل يحبها أم لا؟ لماذا لم يرتفع هذا الحب في قلبه كحقيقة لا تقبل

المناقشة ولا السؤال؟

ولماذا كان يعيش في حبه الأول.. حب سميحة.. ويرى صورتها على وسادته الخالية؟!

لأن درية كانت قريبة منه دائمًا.. كانت ملك يديه!!

ولأن سميحة كانت بعيدة عنه دائمًا.. لم تكن أبدًا ملكه!

والإنسان يفكر دائمًا في البعيد، ويبحث دائمًا عن البعيد.

ولكن هل هو يحب سميحة.. هل هو يحب حبه الأول؟!

لقد كان يحبها في صباه.. إنه لا ينكر.. ولكن اليوم.. هل يحبها؟

ربما كان يحب في سميحة صباه هو، لا سميحة نفسها؟!

ربما كانت هذه الذكريات التي يعيش فيها، هي ذكريات أيامه هو، لا ذكرى تؤكد حقيقة حبه لسميحة.. ذكريات كبقية الذكريات،
لا يمكن أن تعود، ولا يمكن أن يعيش فيها الإنسان؟

ربما كان ضحية عقدة نفسية تكونت عقب فشله في الزواج من سميحة، وزواجها من غيره؟!

عقدة نفسية مركبة تمثل الفشل.. وهذه العقدة - وليس حب سميحة - هي التي كانت تدفعه دون أن

يدري إلى النجاح ليغطي به شعوره بالفشل!!

ولم تكن صورة سميحة التي يرسمها في خياله فوق الوسادة الخالية إلا صورة لهذه العقدة.. صورة الفشل!

هذا صحيح.. إنها الحقيقة!!

وأحس أن صدره يتسع كأن قد حلت فيه عقدة!!

ورفع رأسه واستنشق الهواء ملء رئتيه، كأن سراحه قد أطلق بعد سجن طويل وخرج إلى الحرية.. الحرية من الوهم ومن عقدته النفسية!!

وملأ صدره بعبير الحرية.. كأنه يملأه بالحياة..

ولم يكن عبيرها إلا حب درية.. زوجته التي لم يعرف كم يحبها إلا عندها كاد أن يفقدها..

وأسرع خطاه عائدًا إلى المستشفى، وكان الليل قد بدأ يلف المدينة..

أسرع في خطوات نشطة مرحة كأنه يعود باكتشاف جديد في نفسه.. كنز يكفيه العمر كله..

ووقف برهة على سلم المستشفى كأنه تذكر شيئًا، ثم نظر إلى يده اليسرى، وخلع منها الدبلتين.. ثم أعاد إلى أصبعه دبلة واحدة.. الدبلة الذهبية!

ونظر إلى الدبلة الفضية نظرة طويلة كأنه يسخر منها، ثم قذف بها في الهواء وعاد والتقطها، ثم وضعها في جيبه كأنه يلقيها في درج مهمل من أدراج حياته.. لا يضم سوى ذكريات صباه..

ودخل إلى درية مرحًا وكأنه نسي أنها مريضة لم تسترد الحياة إلا منذ ساعات..

وكانت قد أفاقت من «البنج» ولا تزال أنفاسها تترنح ضعفًا..

ونظرت إليه باسمة..

وجلس بجانبها وهو يقبلها بعينيه..

وقالت في صوت ضعيف وقد انسحبت ابتسامتها لتترك الحسرة والأسف تملآن وجهها:

- أنا آسفة يا صلاح.. ما قدرتش أجيبلك حاجة!

وقال ضاحكًا وكأن شيئًا لم يحدث:

- معلهش.. الدور الجاي تتشطري حضرتك وتجيبيلي اتنين مرة واحدة!!

وعادت الابتسامة إليها، ومدت يدها تحتضن بها يده اليسرى.. ثم دفعها المجهول أن تنظر إلى يده.. إلى أصبعه، فلم تر إلا الدبلة الواحدة.. الدبلة الذهبية!

ورفعت إليه عينيها صامتة متسائلة.. وقرأت الجواب في عينيه وفي ظل ابتسامته.. قرأت الحب!!

وضغطت على يده في ضعف كأنها تقبلها.. وانحنى يقبل جبينها!

وجاءت الممرضة لتنام..

وهمس في أذنها:

- تصبحي على خير!!

ثم قبلها مرة ثانية فوق جبينها..

وعاد إلى بيته مرحًا، وخلع ثيابه، وألقى بنفسه على فراشه، ومد ذراعيه بحكم العادة إلى الوسادة الخالية.. ثم أبعدها عنه فجأة ونظر إليها كأنه يخاف شيئًا، ثم ابتسم وعاد هدوء المرح إلى وجهه.. فقد رأى وجه درية يرسمه خياله فوق الوسادة..

وجه زوجته..

واحتضن الوسادة الخالية.. وضغطها إلى صدره..

ونام..

الله محبّة

ليس لي فضل في هذه القصة إلا فضل كتابتها.. فقد سمعتها من فتاة قبطية أحبت مسلمًا، وانتهى حبها إلى عذاب.. فدارت تتعزى بجمع قصص المعذبات مثلها.. القبطيات اللاتي أحببن مسلمين.. والمسلمات اللاتي أحببن أقباطًا..

قصة كتبتها لأنها مشكلة تعيش في أكثر من بيت، ويروح ضحيتها أكثر من قلب..

مشكلة لن يحلها تجاهلها..

«إحسان»

8

كان كل شيء بينهما يبدو طبيعيًا، كما يبدو بين كل فتى وفتاة.. ليس فيه شذوذ، ولا غرابة، ولا ينذر بمأساة..

كان شقيقًا لإحدى صديقاتها، وكانت تراه دائمًا كلما رأت شقيقته، ثم أصبحت ترى شقيقته كلما رأته، ثم أصبحت تراه دون أن ترى شقيقته!

وإذا بها في شوق دائم إليه.. إلى وجهه الأسمر في لون البُن المحروق.. وعينيه السوداوين الذكيتين، وقامته المديدة كأنه فرعون صغير، ولم يكن يميزه عن فرعون إلا أدبه الكثير، وصوته الخفيض، وكلماته التي ينطقها ببطء كأنه ينتزعها من بئر عميقة، وينطقها بلهجة صعيدية يحرص عليها رغم أنه لا يزور الصعيد إلا في كل عام مرة أو مرتين ليجمع محصول أرضه..

وإذا بها تعيش دائمًا معه، في ذكرى لفتاته ولمساته وابتسامته النادرة. وإذا بها تضحك كلما تذكرت لهجته الصعيدية ثم تقلده فيها حتى كادت هي الأخرى تنطق بها..

وعندما التقت شفتاها بشفتيه لأول مرة، عرفت أنها تحبه.. وإن لم تعرف إلى أي حد يمكن أن تحبه!

ولم تكن في شك من أنه يحبها.. إنها تقرأ الحب في عينيه، وتشربه من شفتيه، وتسمعه مع أنفاسه..

إنها تحبه.. ولكن إلى أين!

إلى أين هذا الحب؟!

وحاولت أن تهرب من تساؤلها.. حاولت أن تهرب من مستقبلها.. حاولت أن تهرب من الحقيقة التي تجاهلتها منذ أن رأته ومنذ أحبته..

إنه قبطي..

وهي مسلمة..

ومضت بها الأيام في عذاب، وذبلت عيناها تحت ثقل دموعها، وذوى عودها حتى كأنه جف، وسقطت سحابة فوق وجهها فبدت كأنها تعيش دائمًا في سحاب.. وكانت تراه فترى دموعها في عينيه، وترى عوده كأنه مع عودها في سباق نحو الجفاف، وتراه يعيش معها في سحاب.. كانت تعلم أنه يتعذب مثل عذابها وأكثر..

ورغم ذلك لم يواجها الحقيقة..

لم يقل لها إلى أين..

ولم تسأله إلى أين..

ولكنها لم تستطع أن تهرب طويلًا من تساؤلها، ولا من مستقبلها.. كانت كلما ضم شفتيه إلى شفتيها سمعت دقًا كأنه دق دفوف الزفاف، وكلما أراحت رأسها على صدره أحست أنها في «الكوشة»، وكلما رأته آتيًا نحوها من بعيد خيل إليها أن الملائكة ينشدون من حولها:

«مبروك عليكي عريسك الخفة»!!

وكان يجب أن تبحث عن حل.. عن نهاية يستقر عندها حبها..

وبدأ تفكيرها يتخذ خطوطًا عملية.. إنه يستطيع أن يشهر إسلامه.. ويستطيع بعد ذلك أن يتزوجها..

إنها مجرد شكليات.. أن يذهب إلى المحكمة الشرعية ويقول أمام القاضي: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله».. ثم يصحبها بعد ذلك إلى المأذون!

واستراحت إلى هذا التفكير، وقررت أن تدفعه إليه..

وكأنهما كانا على موعد.. فلم يكد يلتقي بها ويسحب شفتيه من فوق شفتيها، حتى قال بصوته الخفيض وكأنه ينزع كلماته من بئر عميقة:

- لقد فكرت طويلًا.. يجب أن ننتهي إلى حل..

قالت وكأنها تزغرد:

- هل تشهر إسلامك؟!

وصمت طويلًا وكأن شفتيه الرقيقتين قد اختفتا من وجهه.

وعادت تقول وقد انهارت فرحتها:

- إنك لا تريد.. لا تريد أن تتزوجني..

وتحركت شفتاه ببطء:

- لي سؤال واحد..

- ماذا؟

- هل لو طلبت منك أن تخرجي عن دينك.. تخرجين؟

وأجابت فورًا، وكأنها لم تفكر، ولا تريد أن تفكر:

- نعم..

ثم سكتت ولم تعلق بشيء، وكأنها أحست بخطورة ما وافقت عليه.. أحست بأن شيئًا كبيرًا مجهولًا قد تخلى عنها، وتركها معلقة بين السماء والأرض، وسلط عليها هواء رطبًا يملأ صدرها ويعصف في عروقها..

وابتسم ابتسامة حانية، وقال وهو يحتضنها بابتسامته، ويمسح بيده فوق رأسها كأنها يد قسيس طيب تباركها:

- إلى هذا الحد؟!

قالت وهي لا تنظر إليه، وليس في صوتها سوى حشرجة:

- لقد قلت إننا يجب أن ننتهي إلى حل.. أي حل!!

قال وقد أحس ما بها:

- إن كلا منا يريد أن يضحي للآخر بأعز ما يملك.. ولكني
لا أريدك أن تضحي، أو على الأقل لا أريدك أن تشعري بأنك ضحيت وإلا لما غفرت لي أبدًا هذه التضحية.. كما أني لا أريد أن أضحي بديني لمجرد أنه مفروض فيّ أن

أضحي به.. لنترك الله يختار بيننا.. فهو صاحب دينك وديني..

- وكيف يختار الله؟!!

- لنجرب الحظ.. فهو أبسط مظاهر حكم القدر..

وأخرج من جيبه قطعة نقود فضية، وقدمها إليها قائلًا:

- اختاري لك وجهًا..

وابتسمت، أو حاولت أن تبتسم، واختارت أحد وجهي قطعة نقود، واختار هو الوجه الآخر، ثم وضع قطعة النقود في يدها قائلًا:

- اقذفي بها في الهواء.. والوجه الذي يسقط إلى أعلى يغيِّر صاحبه دينه!!

وحاولت مرة أخرى أن تبتسم، ولكنها لم تستطع.. ووجمت، وأحست أنها مقدمة لتسير فوق الصراط المستقيم.. وعندما قذفت بقطعة النقود في الهواء أحست أنها تقذف بقلبها..

وانحنت تنظر إلى الأرض وقد جحظت عيناها، وكتمت أنفاسها.. ثم شهقت شهقة خافتة، ورفعت رأسها وقد تصلب وجهها وتاهت نظراتها..

أصبح عليها أن تغير دينها وتعتنق المسيحية..

وارتبك وهو بجانبها، ولم يدرِ ماذا يقول، ثم افتعل ضحكة جافة.. قائلًا:

- هل صدقت؟!! لقد كنت أهزر.. إنها نكتة أردت أن أسليك بها.. لا تأخذيها على محمل الجد.. إن الإنسان لا يقامر بدينه، وهذا نوع من القمار..

قالت وهي لا تزال ساهمة:

- إنه القدر.. والحب قدر!!

- لا.. لن أسمح لك..

- لا تتعب نفسك.. لقد قررت..

ثم التفتت إليه، وركزت عينيها في عينيه:

- قل لي.. هل كنت تشهر إسلامك لو رفضت أنا أن أعتنق المسيحية؟!!

ولم يجب، ولكنها لمحت دموعه في عينيه.. دموعًا تشهد على حبه، وتقسم بجميع الأديان أنه لها.. فانكفأت على صدره تبكي..

وجمعتهما الدموع في دين واحد..

ولم تنم ليلتها..

ولم تحس بالإسلام وبأنها مسلمة.. قدر ما أحست هذه الليلة.. بل خُيل إليها أن كل حياتها وكل ذكرياتها كانت كلها للدين.. أشياء صغيرة مرت بها ولم تكن تذكرها أصبحت تذكرها وكأنها قطعة من حياتها.. الحاجة أم إبراهيم مربية والدها التي تأتي لزيارتهم كل أسبوع لتبخر البيت ثم تطوف فوق رأسها بالمبخرة وهي تقرأ الأوراد وتتلو الأدعية.. وأم عبده «الماشطة»

التي كانت تدخل معها الحمام في صغرها وتدلك جسدها البكر وهي تسكب فوقه الماء الساخن، وتتمتم «اللهم صل عليه وسلم.. قل أعوذ برب الفلق من شر حاسد إذا حسد».. وزيارتها «للقرافة» لتقرأ الفاتحة على قبر والدها.. ورمضان، والتفاف العائلة في انتظار مدفع الإفطار.. والعيد وفرحته.. وصوت المقرئ الذي ينبعث من الراديو ويتلو القرآن.. وقسمها بالنبي في كل مناسبة.. أي نبي تقصد عندما تقسم اليوم؟!

إنها مسلمة.. ولم تكن تدري أن الإسلام يعيش في حياتها إلى هذا الحد.. إنها لا تصلي ولا تصوم، ولكن هناك من الإسلام شيئًا أكثر من الصلاة والصوم، شيئًا يختلط بدمها، ويتردد مع أنفاسها ولم تكن تحس به لأن الإنسان لا يحس بدمه ولا يعد أنفاسه..

وكادت تجن...

يا رب.. لماذا لم توَّحد الأديان؟!

يارب.. وإذا كانت هذه إرادتك فما ذنبي أنا؟!

وقامت في الصباح مقرحة الجفنين، كأنها أفاقت من إغماء.

وذهبت للقائه، وصحبها إلى قسيس ليسألاه عن الإجراءات المتبعة.. وكانت تسير بجانبه صامتة، متصلبة العود، شاردة النظرات كأنها آتية من عالم آخر.. وكانت تسمع صوته كأنه آت من بعيد.. من بعيد جدًا..

ولا تجيب عليه إلا بهزات رأسها وكأن الناس في هذا العالم الذي أتت منه ليس لهم ألسنة..

ونظرت إلى القسيس دون أن تراه.. وخيل إليها أنها أمام عملاق ضخم مجلل بالسواد.. وأن رأسه كبير.. كبير جدًا.. وذقنه سوداء تتدلى حتى ركبتيه.. ولم تسمع شيئًا مما كان يقوله الرجلان وهي بينهما.. إنما شردت عيناها تطوفان بالغرفة، ثم سقطتا فوق لوحة معلقة بالجدار.. ولمحت شيئًا مكتوبًا على هذه اللوحة.. حروفًا لا تستطيع أن تلتقطها بعينيها الشاردتين، إنما هي تهتز وتتموج كأنها حروف مكتوبة فوق الماء..

وأجهدت عينيها، ودققت النظر، وحصرت ذهنها، إلى أن اتضحت الحروف أمامها..

وقرأت: الله محبة..

وابتسمت ابتسامة باهتة.. ثم ابتسم وجهها كله.. وارتخت أعصابها المتصلبة، وارتاحت عيناها الشاردتان..

وأحست أن قلبها يهلل ويضحك ويملأ الدنيا كلها ضحكًا..

إن الله محبة..

الله الحب..

إذن فهي مع الله، لأنها تحب، ولأنها هنا من أجل الحب..

والتفتت إلى القسيس لتراه لأول مرة.. وخُيل إليها أنه جميل.. جميل جدًا.. أشبه بكيوبيد إله الحب الذي يصورونه في الكتب..

واقترب منها القسيس وربت على كتفها بيد حنون، وهو يقول في صوت كأنه نغم مزمر.. مزمار داود: «بارك الله لك يا ابنتي»!

وطأطأت رأسها وقد استبدت بها السعادة حتى خجلت منها.. ثم انصرفت مع فتاها..

وسألته وهما في الطريق:

- إلى أين؟

- إلى المحكمة الشرعية..

- لماذا؟!

- ألم تسمعي ما قاله القسيس؟!

- لا..

- إنك لا تستطيعين أن تغيري دينك لأنك لم تبلغي سن الرشد بعد..

- وما العمل؟

- سأعتنق أنا الإسلام..

وتعلقت بعنقه وأخذت تقبله في جميع أنحاء وجهه..

وقال وهو يقود سيارته:

- هذه المرة.. إنه القدر!

* * *

وتم إشهار إسلامه..

ولم يكن الأمر لديه يتعدى مجرد شكليات يفرضها عليه المجتمع، ومجرد ورقة يوقعها إرضاء للحكومة.. إن ما بينه وبين الله في قلبه وفي سريرته لا شأن للمجتمع ولا للحكومة ولا للمشايخ
ولا للقسس به.. والله ليس في حاجة إلى هذه الإجراءات ليعرف إيمانه، وهذه الإجراءات أيضًا لن تبدل شيئًا مما بينه وبين الله..

أشهر إسلامه وهو لا يشعر بشيء إلا شعورًا أشبه بالتحدي.. تحدي قومه وتحدي قوم فتاته.. وربما ارتجفت شفتاه وهو يتلو الشهادتين، وربما ارتعشت يده وهو يوقع الأوراق، ولكنه كذَّب رجفته وأنكر رعشته وأقنع نفسه بأنه يؤدي واجبًا يفرضه عليه النبل، والشهامة، والحب.. وكلها صفات من صفات الله..

وكان عليه بعد ذلك أن يذهب إلى شقيق الفتاة ليخطبها منه إلى نفسه.. وكانت هذه الخطوة أصعب عليه من تغيير دينه.. بل إنه لم يحس أنه قد خرج عن دينه إلا وهو جالس إلى شقيق الفتاة كالتلميذ المرتبك أمام لجنة الامتحان.. يحاول أن يتذكر كل ما اختزنه في رأسه فلا يذكر منه شيئًا..

وقال الأخ الكبير في هدوء:

- إني لا أستطيع أن أعترض، فأنت تملك جميع صفات الزوج الكامل، ولكن..

وسكت الأخ قليلًا، وتعلقت أنفاس الفتى بشفتيه..

واستطرد الأخ قائلًا:

- هل تجيبني بصراحة لو سألتك؟!

- سأحاول..

- هل أشهرت إسلامك إيمانًا منك بالإسلام، أم لمجرد الزواج من شقيقتي؟

وسكت الفتى طويلًا.. واحتقن وجهه.. وأخذ يضغط بيد على الأخرى.. ثم قال وهو يختار كلماته بدقة حتى لا يخطئ، وكأنه يختار مواضع قدمه في طريق مليء بالأشواك:

- الواقع أني لم أكن متدينًا أبدًا.. كنت قبطيًا بالوراثة وكنت أشترك في القليل من مراسم الدين بحكم العادة وبحكم وجودي بين أفراد عائلتي.. ولكني لم أحاول أبدًا أن أعي الديانة وعيًا كاملًا أو أومن بالدين إيمانًا مفصلًا.. إنما كنت دائمًا أومن بالله إيمانًا مطلقًا مجردًا، وأخافه، وأتقي غضبه.. وكنت أومن بالصدق والأمانة وبقية المثل العليا دون أن أربط هذا الإيمان بالدين.. فإذا كان هذا حالي وأنا قبطي، فلا تنتظر مني أن أقول لك أني أومن بالإسلام كدين مفصل، بل إني أعترف لك أني لا أعلم من الإسلام إلا أنه دين سماوي..

- إذا فأنت لا تؤمن بالإسلام.. ولا بالمسيحية؟!

- إني أومن بالله.. وكل الأديان لله!!

- إن الإيمان يحتاج إلى قواعد يرسو عليها، وإلى خطوط تحدده حتى لا يكون إيمانًا مائعًا يخضع لهوى النفس ولأطماع البشر.. والله عندما فرض علينا الإيمان به فرض علينا أيضًا صور هذا الإيمان وتفاصيله، وربط نواصيه ربطًا محكمًا حتى لا يترك فيه ثغرة يدخل منها المجادلون وبصحبتهم الشياطين ليضللوا العباد باسم الله سبحانه وتعالى..

- إني أحسدك على إيمانك، وهو نوع من الإيمان يحتاج إلى قوة روحية لا أملكها.. ولكنني لا أريد أن أتزوج شقيقتك في الآخرة، إنما أريد أن أتزوجها في الدنيا.. والدنيا لا تتطلب مني كشرط لزواجها إلا أن أكون قادرًا على إسعادها، فاكتفِ بهذا وأنت تحاسبني، ودع الله يحاسبني على الباقي..

- إن الإيمان شرط لحياة الدنيا وحياة الآخرة.. والله يحاسبك في الدنيا وفي الآخرة.. وأنا أحاسبك باسم الله وبكتاب المسلمين وكتاب الأقباط..

- إني أحبها.. والله مع الحب!

- إن الحب إيمان.. والإيمان يبدأ بالله وبالدين..

- إن الله جمع بين قلبينا، وأنت تريد أن تفرق بيننا.. إنك تتحدى الله!

- أستغفر الله.. ولو كان الزواج هو مجرد الجمع بينكما، لتركتكما لله يصدر فيكما حكمه.. ولكن الزواج

هو الأولاد وهو المجتمع.. وأنا لا أستطيع أن أغمض عيني عن جريمة ترتكب في حق أولاد لم يولدوا وفي حق المجتمع.. تصور أولادك عندما ينشأون وهم لا يدرون إن كانوا مسلمين أو أقباطًا.. لا يعرفون نبيًا يقدسونه، ولا يعرفون قديسين وأولياء يتشبهون بسيرتهم، ولا يسمعون هذه القصص الدينية التي تبدو ساذجة، ولكنها تترك في نفوس الأطفال خطوطًا عميقة تنمو معهم وتصون مبادئهم ولا يمارسون هذه التقاليد والطقوس الدينية التي تبدو فطرية تافهة، ولكنها تحيط القلوب الصغيرة بأغلفة من السمو الروحاني وتقطر فيها الإيمان قطرة فقطرة حتى تصبح قلوبًا كبيرة محصنة أمام الشر وأمام الخطيئة..

وسكت الأخ الكبير كأنه يقيس وقع كلامه على الفتى، بينما الفتى منكس الرأس يدق الأرض بقدمه دقات خفيفة متوالية كأنه لا يريد أن يسمع ولا يريد مزيدًا من الكلام..

واستطرد الأخ قائلًا:

- انظر إلى نفسك، إنك فتى صالح.. أتدري سر صلاحك وقوة خلقك؟ إنهما في طفولتك وفي نشأتك.. لقد نشأت وأنت تعرف دينك وتعرف نبيك، وتربت مخافة الله معك، وشربت الصدق والإخلاص وبقية المثل العليا مع لبن أمك، حتى لو أنك اليوم تنكر الدين، وتنكر تفاصيله، وتنكر طقوسه.. إني أريد أولاد أختي أن يكونوا مثلك ومثلي، لا أريدهم حيارى بين أم تؤمن في

قرارة نفسها بالإسلام، وأب يؤمن في قرارة نفسه بالمسيحية، وكل منهما يخاف أن يفصح عما في قرارة نفسه خوفًا من إغضاب الآخر، وكل منهما يخاف أن يروي لأولاده قصص دينه، ويمارس أمامهم تقاليده وطقوسه.. ثم المجتمع.. و...

وقاطعه الفتى وهو يصفع ركبته بكفه في حركة عصبية:

- يبدو أننا لن نتفق.. وقد كدت أيأس!

- خير لك أن تيأس..

- إذًا فلن توافق على الزواج؟!

- وسأمنعه بكل ما فيّ من قوة..

- وتتركنا للعذاب؟!

- إني أوفر على أختي عذابًا كبيرًا..

- وتظن أن الله يرضى عنك؟!

- إني أتقي غضب الله!

وانتفض الفتى واقفًا، ومد يدًا باردة إلى الرجل، ثم اتجه نحو الباب.. وفي البهو الخارجي التقى بالفتاة واقفة وبين عينيها سؤال متلهف، قرأت جوابه في وجهه المُزبِد وعينيه الغاضبتين وشفتيه المزمومتين حتى كادتا تختفيان من وجهه.. فشهقت ووضعت كفها فوق شفتيها حتى تكتم شهقتها وارتفعت في عينيها نظرة فزع وألم كأنها رأت قلبها يذبح أمامها..

ووقف الفتى قبالتها برهة، ينظر إليها ولا يتكلم ولا يمد لها يدًا.. ثم نقل عينيه إلى أخيها.. ثم خرج!!

وفي الليلة نفسها صحب الأخ شقيقته إلى عزبته، ومعها دموعها..

وهناك مرت بها الأيام وهي في كل يوم تفقد شيئًا من نفسها حتى خيل للناس أنها فقدت عقلها..

جفت حتى أصبحت كعود الحطب لا يرويه ابتسام ولا ترويه دموع.. وشرد كل ما فيها حتى لم يعد فيها شيء.. ولم تعد تتكلم، ولم تعد تسمع شيئًا مما يقوله لها أخوها، ولم تعد تحس بجوع أو بشبع، ولا بظمأ أو ارتواء، ولم تعد تقف أمام مرآتها، أو تضع الطلاء على وجهها، أو تشمط شعرها، أو تبدل ثوبها.. أصبحت كيانًا مذهولًا يطوف كالخيال بين أربعة جدران..

لم يعد فيها إلا شيء واحد علامة الحياة.. عيناها.. كان فيهما دائمًا بريق خاطف وكانتا دائمًا مفتوحتين، وكانتا دائمًا تبحثان عن شيء.. ربما شيء في عقلها أو شيء في قلبها، أو شيء وراء الحياة..

ثم بدأت تميل إلى امرأة معينة من نساء العزبة.. تدعوها دائمًا إلى صحبتها ولا تتناول شيئًا إلا من يدها، ولا تتكلم إلا معها.. وأحبتها المرأة، وحنت عليها ودللتها، وأخلصت في خدمتها..

وجلست يومًا تكتب خطابًا.. خطابًا قصيرًا.. بضع كلمات مرتعشة:

«حبيبي..

لم أعد أحتمل.. إني أحس بالجنون يزحف فوق صدري سأذهب إلى الله.. ربي وربك.. ربما التقينا هناك!».

وأعطت الخطاب إلى المرأة لتلقيه في صندوق البريد في خفية من أخيها.. ثم أرسلتها بعد يومين لتقف عند باب العزبة في انتظار موزع البريد، ربما يأتي إليها برد..

وجاءها الرد.. قصيرًا.. بضع كلمات مرتعشة:

«حبيبتي..

لا تذهبي وحدك.. انتظري، سأذهب معك.. أخبريني كيف تذهبين ومتى تذهبين.. التاريخ والساعة بالضبط، حتى نصعد سويًا فلا يضل أحدنا طريقه إلى الآخر.. إن الله موافق على زواجنا والملائكة يعدون حفل الزفاف!».

* * *

وفي يوم معين في ساعة معينة، ارتفعت صرختان من ألم في وقت واحد.. إحداهما في عزبة شكري بكفر صقر والثانية في شارع شيكولاني بحي شبرا..

وخرجت سيارة من عزبة شكري تطوي الأرض نحو المركز لاستدعاء طبيب، وكان الطريق طويلًا والطبيب متكاسلًا، وعندما عادت به السيارة إلى العزبة، كانت الصرخة قد سكتت.. إلى الأبد!

واستدعي الطبيب القريب في حي شبرا فجاء سريعًا.. واستطاع أن يطرد الموت من حول الفتى، وأن يسترد السمَّ من أمعائه قبل أن يفتك بها..

كانا قد اتفقا على كل شيء.. اليوم، والساعة، ونوع السم.. ولم يبق أمامهما إلا الزفاف في السماء..

9

ولكن الله أرادها وحدها.. وتركه في الدنيا وحيدًا مع عذابه في انتظار زفافه إليها.. إنه يعيش منذ عامين يستجمع شجاعته ليحاول اللحاق بها مرة أخرى.. والطريق صعب، وقد جربه مرة، وذاق أوله، فلم يستطع أن يجربه مرة أخرى.

إنه يعيش هيكلًا متداعيًا من ذكريات حبه.. هيكلًا يضم من الروح نسمات هافتة، ويضم من الموت فراغًا كبيرًا هائلًا..

يعيش وهو ينثر العذاب من حوله.. فقد عرفت الفتيات القبطيات قصته، وحاولت كل منهن أن ترد له الحياة وتبعد عنه الموت، فلم تنل منه إلا أن تعذبت معه وبه..

ابعدوا عنه.. إنه معذِّب ينثر العذاب...

ولكن.. أين الأخ الكبير الجليل؟!

إنه يصلي؟!

كل النساء

قصة رمزية

كان دائمًا أمامها، وبين شفتيه ابتسامة تسع الدنيا كلها..

وكانت لا تستطيع أن ترخي عينيها عنه..

إنه أجمل ما في الحياة..

إن قلبها يخفق كورقة ينفخ فيها بأنفاسه، وعينيها تلتمعان كأنه يضيئهما بابتسامته.. ودماءها تجري دافئة كأنها تجري وراءه..

ماذا تساوي الحياة؟

لا شيء..

لا شيء إلا هو.. هو وحده الذي يعيش له..

وكان دائمًا أمامها جميلًا رفيقًا كأحلام العذارى.. وهو يبتسم.. يبتسم دائمًا.. ولكن هل يبتسم لها وحدها؟!

والتفتت حولها لترى الحقيقة بعينين ثائرتين!!

إن هناك غيرها.. كثيرات!!

وهو يعجبه أن تكون له الكثيرات، وأن يبتسم لهن جميعًا.. كأنه سليمان في عدله لا يظلم واحدة فيحرمها من ابتسامته!

وزمت شفتيها في عناد، وهمست لنفسها في إصرار:

- سيكون لي وحدي..

واقتربت منه خطوة..

وأحست بعينيه الدافئتين تضمانها، ولمحت ابتسامته ترق حتى تكاد تذوب فيها شفتاه..

ولكنها لا تزال بعيدة عنه.. ولا يزال بعيدًا عنها..

إن هناك خيوطًا كثيرة تشدها إلى الوراء.. تشدها بعيدًا عنه..

خيوط من تقاليد عاشت فيها وسط أهلها، وتحتم عليها ألا تخرج إليه، بل تنتظره إلى أن يأتي إليها..

ولكنها لا تنتظر..

إنها لن تستطيع..

يجب أن تجازف وتخرج إليه، ولن يضيرها ساعة من النهار تغضب فيها التقاليد..

وقطعت خيطًا من خيوط التقاليد التي تشدها بعيدًا عنه، وخرجت إليه في ساعة من ساعات النهار..

وأحست كأنها ملكت الدنيا.. أحست بقلبها يرف كالطائر الصغير ينفض عن ريشه ندى الفجر ليطير في السماء..

وخرجت إليه في ساعة أخرى.. وثانية.. وثالثة.. ثم لم تعد ساعات النهار كلها تكفيها.. وهو بعد لا يزال بعيدًا عنها، ولا يزال للكثيرات..

وقالت له كأنها تخاطب نفسها:

- لقد ضحيت من أجلك بتقاليد الأهل..

قال وابتسامته بين شفتيه:

- لقد ضحيت بشيء لا تؤمنين به..

قالت وهي ساهمة:

- هذا صحيح.. إني لا أومن بهذه التقاليد..

قال:

- إذن فأنت لم تضحي..

قالت:

- هذا صحيح..

ثم استطردت كأنها نسيت شيئًا:

- ولكني ضحيت برضاء الأهل عني وثقتهم بي..

قال:

- الأهل هم الدنيا التي تذهب..

قالت:

- هذا صحيح..

قال:

- أنت إذن لم تضحي.. لأن التضحية لا تكون بشيء ذهب!

قالت مستسلمة:

- هذا صحيح.. ولكني أحس أني تائهة!!

قال في ضوء ابتسامته:

- اتبعيني وستجدين طريقك خلفي..

وقطعت كل الخيوط التي تشدها إلى الوراء وتبعته..

* * *

أصبحت فتاة متحررة.. وأصبحت له كل ساعات النهار.. والليل!

وأحست أنها اقتربت منه خطوة أخرى.. خطوة كبيرة.. وأحست بأنفاسه الدافئة تلفح وجهها، وأحست بشفتيه تقتربان من شفتيها.. ثم تستقران فوقهما في رقة ودعة كأنهما جناحا ملاك يبارك لها في شفتيها..

وابتسمت في مرح، وقالت كأنها تهنئ نفسها:

- هذه هي القبلة؟!

قال وابتسامته تملأ وجهه:

- أول قبلة..

قالت كأن إنسانًا يحاسبها:

- ولكنها حرام..

قال:

- ما هو الحرام؟

قالت:

- القبلة..

قال:

- لماذا؟

ورفعت عينيها كأنها تتذكر، ثم عادت تقول:

- لا أدري؟

قال:

- إن الحرام هو ما يحرمه كل واحد على غيره!

قالت:

- هذا صحيح..

قال:

- إنها الأنانية إذن. أنانية الناس الذين لا يحبون لغيرهم ما يحبون لأنفسهم!

قالت:

- هذا صحيح..

قال:

- القبلة إذن ليست حرامًا!

قالت كأنها اكتشفت اقتناعها:

- هذا صحيح!

ورفعت إليه شفتيها.. وأحست بجناحي الملاك الصغير يضربان فوق شفتيها في عنف حتى يكادان يطردان أنفاسها.. وأحست بالدماء تتجمع ساخنة تحت وجنتيها ثم تنسكب مصهورة في شفتيها..

قالت وهي مبهورة الأنفاس:

- وهذه؟!

قال:

- إنها القبلة الثانية..

قال:

- إنها ليست كالأولى!

قال:

- إن القبلة كالحياة.. القبلة الأولى رقيقة هافتة تمس شغاف القلب، كالطفل فيه رقة الحياة وجمالها ولكنه لا يعيها.. والقبلة الثانية واعية، متفتحة الإحساس بالحياة..

قالت مترددة:

- والثالثة؟!

قال وفي ابتسامته إغراء:

- إنها الحياة نفسها.. بكل ما فيها من ضجيج الحياة!

وانطلقت شفتاه إلى شفتيها..

ولم تحس بجناحي الملاك، إنما أحست بذوب شفتيه يقطر في أعصابها فتنتشي وينتشي كل ما فيها.. ثم يتحرك كل ما فيها كأنه يسعى في الحياة..

إن ذراعها تتحرك فتقبض على خصلات شعره.. وخدها يتحرك فيتمسح في خده.. وشفتيها تتحركان فتعصران شفتيه.. ونهديها يتحركان فيقفزان فوق صدره..

قالت وهي تلهث من ضجيج الحياة التي دبت فيها:

- إني أخاف..

قال:

- مم؟!

قالت:

- من الحياة..

قال:

- ولكنها الحياة!

قالت:

- هذا صحيح..

قال:

- كلنا يجب أن يعيش الحياة!

قالت:

- هذا صحيح..

قال:

- أنت إذن لن تستطيعي الهرب..

قالت:

- لا.. لا أستطيع.. إن الحياة جميلة بكل ما فيها من ضجيج!!

وعاد يقطر في أعصابها ذوب شفتيه.. وعاد كل ما فيها يتحرك كأنه يسعى في الحياة!!

وأحست أنها تتجرد..

تتجرد من ثيابها.. ومن عقلها.. ومن وعيها..

إن الحياة أجساد تضج.. وتغلي.. وتعرق.. وتنتشي بالألم..

إن الحياة قبضات عنيفة فوق ذراعيها.. ولمسات صاعقة فوق نهديها.. وأنفاس ساخنة تلف عنقها.. ثم صرخات مكتومة.. صرخات يطلقها العذاب وتكتمها اللذة..

....

....

....

....

قالت وقد أرخت جفنيها فوق عينيها بعد أن هدأت بها الحياة ونام كل ما فيها:

- لقد وهبتك أعز ما أملك.

قال متعجبًا:

- ما هو!

قالت:

- شرفي!!

قال وقد ازداد عجبًا:

- ما هو الشرف؟!

قالت حائرة:

- لا أدري.. لعله جسدي!

قال متهكمًا:

- من قال هذا؟

قالت:

- أهلي..

قال:

- تقصدين التقاليد؟!

قالت:

- نعم.. التقاليد..

قال:

- ولكنك لا تؤمنين بالتقاليد..

قالت كأنها تحاول أن تنكر:

- أنا؟!

قال:

- نعم.. ألا تذكرين أول مرة خرجت فيها إليّ.. لقد قطعت يومها أول خيوط التقاليد!

قالت:

- هذا صحيح.. لقد مزقت التقاليد..

قال:

- ورضيت أن تتبعيني..

قالت:

- هذا صحيح.. لقد تبعتك..

قال:

- ليس هناك شيء اسمه الشرف، لأنك لا تؤمنين بأن هناك شيئًا اسمه التقاليد!

قالت:

- ولكني أحس أني وهبتك شيئًا.. شيئًا عزيزًا!!

قال:

- إنك لم تهبيني شيئًا.. ولكنك وهبت نفسك الحياة!

قالت:

- تقصد اللحظات الجميلة..

قال:

- نعم..

قالت:

- ولكنها مرت سريعًا..

قال:

- هكذا شأن الحياة.. مهما طالت فهي دائمًا تمر سريعًا..

قالت:

- ولكني ضحيت بالكثير في سبيل هذه اللحظات..

قال:

- إن ما تشعرين به ليس الإحساس بالتضحية، ولكنه الإحساس بالندم..

قالت:

- الندم على الشرف الذي فقدته..

قال:

- لقد اتفقنا على أن ليس هناك ما يسمى الشرف!

قالت:

- إذن.. لماذا أحس بالندم؟!

قال:

- إنك تندمين على هذه اللحظات الجميلة التي مرت سريعًا..

لأنها مرت سريعًا..

قالت:

- أريد أن أسترد الـ..

وقاطعها:

- لا تقولي إنك تريدين استرداد شرفك، لأنك لا تندمين عليه.. ولكنك تريدين استرداد هذه اللحظات التي تندمين عليها لأنها مرت سريعًا..

قالت في ضعف وذل:

- كيف أستردها؟!

قال في حزم:

- لقد مرت ولن تعود..

قالت:

- إنك تبتعد عني!

قال:

- نعم..

قالت:

- إني أبكي.. ألا ترى دموعي؟!!

قال:

- إن الدموع نعمة.. إنها آخر ما يبقى، وآخر ما يجف فينا..

قالت في عناد:

- لن أتركك تبتعد عني.. سأتبعك سألحق بك.. ستكون لي.. لي وحدي..

وهز كتفيه بلا مبالاة.. وابتسامته الجميلة تملأ وجهه.. وتبعته..

* * *

وسارت طويلًا، وفي كل خطوة تظن أنها وصلت إلى نهاية الطريق..

وأعطت كثيرًا..

وأعطت كل ما عندها واللحظات الجميلة لا تعود..

وهو لا يزال يبتعد..

أصبح بعيدًا.. بعيدًا جدًا..

وصرخت وهي تلهث وراءه:

- ارحمني..

قال وهو يبتسم:

- أنا لا أرحم..

قالت:

- إني أنتهي.. انظر إليَ.. إن جلدي ينكمش فوق عظامي.. لقد أصبحت حطامًا!!

قال:

- كلنا إلى حطام..

قالت:

- أنت الذي حطمتني..

قال:

- أنت التي تبعتني..

قالت:

- اقترب.. لحظة واحدة.. أرجوك.. أريد أن ألمسك.

قال وهو دائمًا يبتسم:

- أنا لا أقترب أبدًا.. إني أقف دائمًا بعيدًا.. لا أحد يستطيع أن يلمسني!

وصرخت في ضعف وهي تسقط على ركبتيها:

- اقترب.. إنك تستطيع أن تنقذني..

قال:

- أنقذك مم؟!

قالت هامسة في حشرجة ورأسها يتدلى فوق صدرها:

- من النهاية..

قال من خلال ابتسامته الجميلة:

- كلٌ له نهاية.. ما عدا أنا..

وصرخت..

ثم سكت كل ما فيها، كأن الحياة قد انتهت..

* * *

ووقف جميلًا رقيقًا كأحلام العذارى وابتسامته تسع الدنيا وهي تحت قدميه هامدة!!

ودوى صوت مجهول يملأ الأرض يسأله:

- من أنت؟!

قال بلا مبالاة:

- أنا؟!

وردد الصوت المجهول:

- نعم أنت!!

وهز كتفيه في استهتار كشاب عابث وقال:

- أنا الأمل!

ورق الصوت المجهول وتساءل وهو يشير إليها:

- وهذه.. من هذه؟!

قال وهو يقلب شفتيه:

- هذه؟!

قال الصوت المجهول ملحًا:

- نعم هذه؟!

قال بلا اكتراث:

- إنها كل النساء!

دعني لولدي

- الساعة الثامنة إذن..

- بل التاسعة والنصف، بعد أن ينام الطفل..

التقى بها في ميدان سان ماركو بفينيسيا..

وقدمه إليها صديق إيطالي. سيدة في الخامسة والثلاثين رشيقة في كل حركة من حركاتها.. رشيقة في انتقاء ثوبها البسيط الذي

لا كلفة فيه، رشيقة في انتقاء كلماتها، وفي منح ابتساماتها دون إسراف ولا تقتير.. كانت مثلًا للذوق الفرنسي الأصيل، ومثلًا لرشاقة سيدة المجتمع التي تعرف كيف تجذبك إليها لتحترمها..

وكانت لها خصلة من الشعر الأبيض تشق سواد شعرها كالشهاب المنير، وتطل فوق عينين زرقاوين واسعتين تكسوهما دائمًا طبقة من الدموع..

هذه الخصلة من الشعر الأبيض هي التي قيدته إليها..

وهاتان العينان الحزينتان دائمًا، هما اللتان حركتا قلبه.

ولكن كيف يبدأ؟ ومن أين يبدأ؟

إنها ليست امرأة سهلة - هكذا يبدو عليها - وهي زوجة أحد كبار رجال الأعمال في بلجيكا، ولشركاته فروع في جميع أنحاء العالم، وفي كل مدينة تحل بها

يسير في ركابها فيلق من موظفي شركات زوجها يقوم على خدمتها ويقوم على حراستها!

وقد جاءت إيطاليا بصحبة ابنها الوحيد.. طفل لا يتجاوز التاسعة من عمره.. ودعت معها صديقة أخرى لها طفل آخر.. وهم يطوفون في سيارة «بويك» مكشوفة، يقودها سائق إيطالي يرتدي بذلة رسمية زرقاء ذات أزرار صفراء، وكان يكفي أن تمر السيارة في طريق ليلتفت الناس كلهم، ويكفي أن تقف لينحني الناس كلهم..

كيف يشق طريقه إليها بين كل هذه المظاهر الرسمية، وهذا الثراء، وهذا الاحترام؟!!

لقد طاف معها ميدان سان ماركو ودخلا الكنيسة الأثرية الخالدة التي تتصدر الميدان.. وطاف معها بين أبهاء قصر «الدوج» وبين معارض التحف الزجاجية الرائعة، وكان يصحبهما دائمًا ولدها الصغير، والصديق الإيطالي الذي يعمل موظفًا في فرع الشركة التي يملكها زوجها..

وكانت هي التي تتولى شرح الآثار والتحف التي مروا بها - فقد زارت فينيسيا من قبل عدة مرات - وكان يكثر من أسئلته لا لشيء إلا ليطيل الوقوف معها، ويطيل الاستماع إليها وهي تنتقي له الكلمات الفرنسية السهلة حتى يفهمها، وقد عرفت فيه ضعف لغته الفرنسية..

وكانت أحيانًا تبتسم له ابتسامة لا يكاد يلمحها حتى تخفيها عنه.. وقد تردد كثيرًا قبل أن يفسر هذه الابتسامة السريعة الخاطفة.. إنها لم تكن مجرد ابتسامة عادية، ولكن هل هي ابتسامة تشجيع؟ تشجيع على ماذا؟

إن الساعات تمر سريعًا، ويجب أن يقدم، يجب أن يقول شيئًا، أو يعمل شيئًا، فغدًا لن يلتقي بها إذ ستسافر إلى سويسرا وهو سيسافر إلى ميلان ومنها إلى ستريزا.

وانتهز فرصة ابتعاد الطفل والصديق الإيطالي عنهما، وقال لها أنه يحتفل الليلة بعيد ميلاده، فهل تقبل دعوته؟

وكان كاذبًا، ولكنها صدقته، وابتسمت نفس الابتسامة السريعة الخاطفة، وقالت:

- هل سنرقص؟ إني أحب الرقص.

- إني أود لو رقصت معك العمر كله!!

وفي هذه المرة استقرت ابتسامتها قليلًا فوق شفتيها، ثم قالت في صوت خافت:

- الساعة الثامنة.. إذن.

- بل التاسعة والنصف، بعد أن ينام الطفل!

وفي هذه اللحظة عاد الطفل، والتفت إلى كليهما، ثم أطلّت من عينيه نظرة غاضبة قذف بها أمه، وتلقتها الأم بابتسامة وجلة مترددة، وحاولت أن تربت على خده،

ولكنه أشاح عنها بوجهه، وصاح في صوت تخنقه ثورة نفسية:

- إني تعب أريد أن أعود!

وافترقا..

* * *

ولم يستطع الانتظار حتى الساعة التاسعة والنصف، فخصلة الشعر البيضاء كانت تهتز أمام عينيه وتعد عليه الدقائق والثواني، والوجه النحيل ذو العينين الزرقاوين الحزينتين كان يطوف به أينما سار، ويملأ عليه حجرته، ويطل عليه من السماء، وينبسط أمامه على الأرض..

ومرت به ساعات أقلقته، وأتعبته. وكان يفكر فيها وفي هذا الحزن العميق الذي يكسو وجهها الجميل.. هل هي حزينة فعلًا؟ أم أنها خلقت هكذا، وهذا الحزن هو طابع جمالها.

ولماذا تكون حزينة وهي زوجة ثرية فاضلة رزقها الله المال والبنين؟!

وخيل إليه أن وراء عينيها مأساة، وأن الله قد اختاره ليرفه عنها ويعيد الابتسام إلى عينيها!

(وسر شقائه في الدنيا أنه يعتقد في نفسه أنه مبعوث العناية الإلهية لإسعاد البشر وإصلاح حالهم!).

وذهب إلى الفندق الذي تقيم فيه، وكانت الساعة السادسة، فوجدها تتناول الشاي في الشرفة المطلة على

القنال الكبير، وبعيدًا عنها قليلًا جلس ولدها يلعب مع ابن صديقتها..

ولمحته، وأشارت إليه فذهب متظاهرًا بأنه جاء يبحث عن بعض الأصدقاء المصريين، ولكنه لم يرفض دعوتها لتناول قدح من الشاي..

وبدأت تحدثه مرة ثانية عن فينيسيا وروما وآثارهما التاريخية، وهو صامت ينظر إلى عينيها..

وفجأة قطع حديثها وسألها:

- هل أنت سعيدة؟

وجفلت من السؤال، ولكنها تمالكت نفسها وأجابت في إيجاز:

- نعم..

- هل أنت متأكدة؟!

وألقت قدح الشاي من يدها فوق المائدة، ثم التفتت إليه في صوت ارتفع قليلًا عما تعوده منها، ثم قالت، بل صاحت:

- لماذا تسألني هذا السؤال؟!

وعادت بعد لحظات وخفضت من صوتها قائلة:

- لا تنس أنك غريب عني، فلا تكن جريئًا حتى تبحث وراء حياتي الخاصة!

قال:

- إن الغريب أكثر إخلاصًا من الصديق القريب، لأنه يبتعد قبل أن يتعرض إخلاصه للذبول.. والراحة الكبرى هي أن تلقي بقصتك في أسماع غريب، فكأنك بذلك تلقين بها في البحر، فبعده عنك يطمئنك بأنه لن يستغل هذه القصة يومًا فيما يؤذيك..

وصمتت قليلًا ثم قالت:

- إنك على حق.. ولكن دع قصتي الآن، وحدثني عن قصتك..

واختار أن يحدثها عن الجانب الفكه من حياته، فضحكت، ضحكت كثيرًا، وكانت المرة الأولى التي يراها فيها تضحك..

وفجأة كفت عن الضحك، والتفتت، وراءها، فإذا بولدها واقف قبالتها، يقذفها بنفس النظرة الغاضبة التي قذفها بها في الصباح..

وتقدم الطفل في خطوات ثابتة، وقد أطبق شفتيه في قسوة فبدا كالرجال ثم جلس بين أمه وبين صاحبها دون أن ينطق بكلمة واحدة..

وساد بينهما صمت قاتم..

ثم حاول أن يداعب الطفل، وحاول أن يقدم له قطعة من «الجاتوه»، وحاول أن يسأله عن سنه وعن مدرسته وعن ألعابه وحاول أن يغريه بكل ما يغري الأطفال.. ولكن الطفل ظل مطبق الشفتين، ثم نظر إليه نظرة أسكتته، فاستأذن.. وانصرف..

....

وفي التاسعة والنصف كانا في جندول يتهادى بهما بين قنوات فينيسيا..

كانت جميلة.. هذا الجمال الشامخ الأبيّ الوقور، وكانت ترتدي ثوبًا أبيض مذهَّب الأطراف، وفي معصمها سوار وفي جيدها عقد، لم يرَ أبسط منهما ولا أجمل ولا أثمن..

وكان من الواضح أنها تجملت له أكثر مما اعتادت أن تتجمل كل مساء، وأخرجت من حقائبها ثوبًا كانت تبخل به على موظفي شركات زوجها في الحفلات التي يقيمونها لها..

وكانت تحاول أن تبدو سعيدة، من أجله!

واختار لهما النوتي أروع قنوات فينيسيا.. قنوات ضيقة يلفها الليل والهدوء، وتطل عليها قصور شاخت حتى أصبحت قطعة من التاريخ.. وتاريخ فينيسيا أيام كلها حب وقبل.

وظل صامتًا يحدق في خصلة الشعر البيضاء..

وأخذت تتمتم بأغنية إيطالية حبيبة إليها، اسمها «نحو القمر».

وكفت عن الغناء والتفتت إليه دون أن ترفع عينيها وقالت:

- تكلم، لقد عودتني أنك كثير الكلام..

- ولكنه أخطر!

- لا شيء خطير بيننا، فنحن الاثنين ملك للقدر، والقدر الذي جمعنا سيكون أرحم بنا من نفسينا..

ونظرت إليه طويلًا، ثم قالت وكلماتها تكاد تختفي بين أنفاسها:

- من أنت؟

- ماذا يهم؟ أنا.. أنت.. هذا النوتي.. هذا الجندول.. هذه القنوات، إننا لوحة فنية رسمها القدر ذات ليلة ولم يتمها بعد، فدعيه يتم خطوطها.. ولا تعاندي القدر..

- إني أخاف القدر..

- ثقي به هذه الليلة!

ومد يده وضغط على يدها، فسحبتها سريعًا وأشاحت عنه ثم انحنت فوق الجندول تحدق في الماء..

قال:

- دعيني أنظر إلى عينيك..

قالت وقد التفتت إليه مبتسمة:

- هل تعجبك عيناي؟

- إني أعيش بينهما منذ التقيت بك هذا الصباح..

- ألأنهما جميلتان؟

- لا.. بل لأنهما عيناك!

وعادت تنحني فوق الجندول وتداعب الماء بأطراف أناملها، وهي تقول:

- إنك تجيد كلمات المجاملة..

- إني لا أجامل.. ولكني أعترف!

وهمست:

- آه منك!

وانتهيا إلى الليدو، وغادرا الجندول إلى ملهى الأكسلسيور، أفخم ملاهي فينيسيا وأرقاها.. وكان قد أعد كل شيء.. مائدة منزوية يصل إليها صوت أمواج البحر من بعيد كأنه ترتيل السماء.. وعشاء باردًا خفيفًا.. وشمبانيا.. كثيرًا من الشمبانيا!

وشربا الكأس الأولى في صحته بمناسبة عيد ميلاده الموهوم..

وشربا الكأس الثانية في صحتها..

وعندما قام يراقصها كانت قد انتشت، ولكنه عندما أراد أن يضمها إلى صدره مانعت وأبعدته في رفق..

وشربا الكأس الثالثة تحية لفينيسيا والرابعة تحية لإيطاليا كلها..

وعندما قام يراقصها مرة ثانية كانت نشوتها قد ازدادت، وعندما ضمها إلى صدره لم تمانع، ولكنه عندما أراد أن يضع خده على خدها أبعدت رأسها عن رأسه، وهمست:

- أرجوك.. إني زوجة عاقلة.. وأحب أن أظل عاقلة..

وهمس في أذنها وهو يضغط على خصرها بذراعه ويمسح على ظهرها بأصابعه:

- إننا نحتاج أحيانًا إلى أن نريح عقولنا.. فامنحي عقلك إجازة هذه الليلة!

- إنه الجنون..

- ما أجمل أن نكون مجانين، ولو لليلة واحدة!

وشربا الكأس الخامسة تحية للقائهما، والسادسة تحية للقديس سان ماركو الذي جمعهما في كنيسته!

وعندما قام يراقصها، كانت شفتاها تترنحان وتركت نفسها له.. تركته يلصق خده بخدها، ويصهر جيدها بأنفاسه، ويزحف بشفتيه ليلقي بقبلات صامتة في أذنيها، ويضغطها على صدره حتى لم يعد يفصل بينهما سوى خيط أدق من الشعرة..

وكانت قد ألقت برأسها فوق كتفه في استسلام لذيذ، وأغمضت عينيها في نشوة كبرى، وانفرجت شفتاها عن «آه» صامتة مستمرة تتردد مع أنفاسها ثم أحس بذراعها تضغطه إلى صدرها، وأناملها تزحف فوق صدره ثم تداعب خصلات شعره، ثم أحس بشفتيها تطوفان فوق وجهه!

وكان المرقص قد خلا إلا منهما، وكانت الموسيقى تعزف لهما وحدهما، فقادها وهو يراقصها إلى الشرفة

ورفع وجهها بين يديه باحثًا عن شفتيها، فوجدهما تبحثان عن شفتيه..

وغابا في قبلة..

ولم تكن قبلة ناعمة، بل قبلة امرأة في الخامسة والثلاثين، فقدت العقل، ونسيت الزوج والولد، ونسيت المركز ونسيت تقاليد عائلة عريقة..

نسيت أو تناست كل ذلك وتركت نفسها تفرج عن الكبت الذي طال أمده، وتنفس عن الجسد الذي طال حرمانه، وتهب ساعة للدنيا بعد أن عاشت عمرها للسماء..

كانت نشوى من تأثير الشمبانيا، ولكنها كانت واعية لما تفعل ولما تريد!!

وأوصلها إلى الفندق وكانت الساعة الخامسة صباحًا، وقبل أن تغادره نظرت إليه وفي عينيها ابتسامة، وقالت وفي صوتها أجراس ليلة الزفاف:

- هل تعرف؟ إني كنت أبحث عنك.. ولكني لم أكن أتصور أنك ستكون أنت.. غريب، مصري، يصغرني سنًا.. ما أعجب الدنيا!!

ولمست شفتيه بأناملها، ثم قفزت من الجندول وغابت عنه..

* * *

ولم ينم..

إن القصة لم تتم فصولًا، وليس من حقها أن تغادره هكذا، وتتركه معلقًا في خصلة من الشعر الأبيض تتأرجح بين السماء والأرض، بل ليس من حق القدر نفسه أن يفرق بينهما، قبل أن يكتب لهما الفصل الثاني، ثم الفصل الأخير..

ووجد نفسه يندفع نحو آلة التليفون ثم يصيح قبل أن يقول لها صباح الخير:

- إنك لن تسافري اليوم إلى سويسرا..

وأجابت في استسلام:

- حاضر!

- وستأتين معي إلى ميلان ثم إلى ستريزا..

- حاضر! (ثم استطردت): إن ستريزا بلد جميل!

ووضع كل منهما سماعة التليفون دون أن يقول أحدهما للآخر «أورفوار»..

وقفز في حجرته وقد استخفته السعادة..

وعلم بعد ذلك أنها لم تنم مثله، وأنها قررت أن تغير برنامج رحلتها وأن تصحبه إلى ميلان.. وستريزا، قبل أن يدق لها التليفون وقبل أن يسألها..

* * *

وتحركت بهم سيارتها نحو ميلان.. هي، وهو، والطفل الصغير، والسائق ذو الحلة الزرقاء والأزرار الصفراء..

وركبت صديقتها وابنها في السيارة الأخرى التي كان يطوف بها إيطاليا بصحبة اثنين من أصدقائه..

إنها لم تتغير.. العينان الواسعتان اللتان تلمع فيهما الدموع، والوجه النحيل الحزين، والابتسامات السريعة الخاطفة، وخصلة الشعر البيضاء التي تكلل رأسها بالوقار الحبيب.. لم يكن يبدو عليها شيء مما جرى بالأمس، ولم تترك لقبلته أثرًا على محياها، وصممت على أن يدور الحديث بينهما جديًا، وفي الموضوعات التي يناقشها عادة السواح.. لا غزل، ولا قصائد غرام.. وإن كان لابد من الغزل، فيكفي التلميح، والتلميح من بعيد..

وقد حاول أن يبدأ بالتودد إلى الطفل.. ولكن الطفل صده بجفاء، كان يرفض أن يجيب على أي سؤال، وإن اضطر فكانت إجابته تقصر على «لا» أو «نعم».. وكان يرفض أن يمنحه وجهه ليقبله، ويرفض أن يسمح له بالربت على ظهره، ويرفض أن يتناول من يده شيئًا بل يرفض أن يبتسم..

وضايقه هذا الجفاء..

وشعرت الأم بضيقه، فاكتفت بأن تبتسم ابتسامة تحمل بعض الاعتذار، ولكنها لم تحاول أن تنهر ولدها على جفائه، ولم تحاول أن تنصحه بمعاملة الضيف العزيز معاملة كريمة..

وصمم الطفل على أن يجلس بينهما..

وقد حاول - هو - مرارًا أن يتسلل بذراعه من خلف الطفل ليتحسس بها كتف أمه، ويضغط عليها كما يفعل كل العشاق، ولكن الطفل كان دائمًا حذرًا متنبهًا، فكان يميل إلى الوراء متظاهرًا بمشاهدة مناظر الطريق، وهو في الحقيقة يقطع الطريق على اليد المتسللة نحو أمه!!

وفي مرة أخرى كان يحاول أن يزحف بقدمه في بطء وهدوء ليضعها بجانب قدمها.. فكان الطفل ينحني إلى أسفل متظاهرًا بالتقاط شيء ما ليوقف القدم الزاحفة عند حدها!

وقد لحظت هي كل ذلك، فكانت الدموع تزداد لمعانًا في عينيها، وجهها النحيل الحزين، يزداد نحولًا، ويزداد حزنًا، والخصلة البيضاء تترنح في الهواء كأنها روح حبيسة تحاول الانطلاق ولكنها لم تكن تتكلم، ولم تكن تعلق..

وكان ابنها «ينحدف» على صدرها أحيانًا ثم يحيطها بذراعيه ويرفع عينيه إليها ويصيح في وله:

- أماه.. كم أنت جميلة!

فتنحني عليه وتقبله في حنان عجيب، وتضم رأسه إلى صدرها في قوة وهيام.. وتبرق الدموع في عينيها..

وأحس أنه بين الأم وابنها كميا مهملة، بل إنه بدأ يغار من الطفل.. ولكنه تحمل صامتًا صابرًا حتى وصلوا إلى ميلان، ولو أن الطريق طال قليلًا لحمل الطفل وقذف به من السيارة!

وفي ميلان أقاموا في فندق واحد..

هي في جناح مكون من حجرة لها ولصديقتها، وحجرة ثانية للطفلين، وحمام، ثم حجرة ثالثة للاستقبال..

وهو في حجرة صغيرة في الدور الأعلى..

وقضوا اليوم الأول يشاهدون متاحف ميلان وقلعتها وكنيسة الروم.. والطفل معهما دائمًا!

وفي المساء، وبعد أن نام الطفل، جاءت إليه كما جاءته في الليلة السابقة.. جميلة رشيقة وقد أطلقت لابتسامتها العنان..

وذهبا يرقصان..

ولم يكن في حاجة إلى كثير من الشمبانيا هذه الليلة، فقد أسلمت نفسها إليه - خلال الرقص - بعد الكأس الأولى، وأحس أنها تتفانى فيه، وأحس بأنفاسها تصهر أعصابه، وبصدرها الرطب يدق على صدره في إلحاح مثير وبوجنتيها تحرضان شفتيه تحريضًا صريحًا..

ولم يعد يسمع الموسيقى، ولا يرى الناس، وثقلت خطواتهما حتى أصبحا واقفين لا يرقصان.. وعندما انتحى بها ركنًا قصيًا هادئًا، ذابت بين ذراعيه، وذاب بين شفتيها..

وهمس قائلًا:

- إنك الآن امرأة أخرى غير التي كانت معي هذا الصباح!

وهمست وهي تطوف بشفتيها فوق وجهه:

- لا تذكرني بالمرأة التي رأيتها وستراها كل صباح.. إني لك كل مساء.. قبلني!

- إني أريد كل دقيقة من عمرك!

- ليس لي عمر أمنحك إياه.. لا تتحدث.. قبلني.. قبلني كثيرًا!!

وأوصلها حتى باب حجرتها في الفندق وقال:

- أيجب أن نفترق هنا؟

وقالت في دلال حازم:

- نعم..

وانحنى يقبل أناملها، ومدت يدها تعبث بخصلات شعره قائلة:

- أيها المجنون، لقد جننتني!

وغابت عنه..

* * *

وفي اليوم التالي دعاها فريق من موظفي فرع الشركة التي يملكها زوجها إلى الغداء، ودعاها فريق آخر إلى العشاء..

وظل هو منتظرًا في بهو الفندق، يحاول أن ينسى قسوة الانتظار بين دخان سجائره.. كانت أعصابه منهكة.. أنهكتها السهرات والقبلات، وأنهكها التفكير في سر هذه السيدة.. بل في سر هاتين السيدتين المتناقضتين اللتين تبدو له إحداهما في الصباح حزينة صامتة وقورة، وتبدو له الأخرى في المساء منطلقة متفانية..

وجاءته في الساعة الحادية عشرة، في ثوب من ثياب السهرة يقطر ذوقًا وجمالًا، وقالت وهي تلهث:

- لقد كنت قاسية، فقد تركتهم بعد آخر طبق من الطعام مباشرة.. وقد فعلت ذلك من أجلك.. أين تريد أن نذهب؟

وقال في بساطة:

- إلى حجرتي!!

وذهلت، ثم صاحت:

- هذا جنون!

- لقد اتفقنا على أن نكون مجانين..

وصمتت، ثم ألقت بنفسها فوق مقعد بجواره، ووضعت رأسها بين يديها، وقالت في هدوء:

- اسمع.. إنك لا تعرفني، ولن أدعك تعرفني، وكل ما أستطيع أن أقوله لك هو أني كنت في حاجة إليك، إلى إنسان مثلك، وفي حاجة إلى الليالي التي قضيتها معك،

وإلى أن أرقص، وإلى أن أسمع غزلك.. ولو لم أجد كل ذلك لمرضت ولأصابتني هزة عصبية.. وما منحتك من نفسي حتى الآن، هو كل ما أستطيع أن أمنحك.. أما ما تطلبه فلا أستطيع أن أمنحه..

وقال محاولًا جهده أن يبدو مخلصًا:

- إني لا أريد شيئًا إلا أن أحس بك لي وحدي، بعيدًا عن الناس، بعيدًا عن الجرسونات، بعيدًا عن العيون.. أريد أن أجلس إليك وحيدين إلا من أنفاسنا، بعيدين إلا عن قلبينا..

وقاطعته في قسوة:

- إذن لنجلس هنا.. في البهو!

- إنك خائفة مني!

وتهاوت وهي تقول:

- بل خائفة من نفسي.. (ثم وضعت يديها بين يديه وقالت في رجاء): أرجوك لا تلح كثيرًا.. لا تدعني أندم على معرفتي بك.. كن عاقلًا من أجلي..

وأحس بأعصابه تخونه، وخيل إليه أن ينهال ضربًا على هذه المرأة التي لا تريده إلا راقصًا يرفه عن أعصابها المتعبة، ولا تريد منه إلا شفتين تنهكهما بقبلاتها دون أن تحسب حسابًا لأعصابه الفتية ولدمائه التي تجري حارة في عروقه..

وصرخ في وجهها:

- قلت لك أني لا أحب أن أكون عاقلًا.. وسأترك العقل لك وحدك..

وقام منتفضًا وأسرع في خطوات ثائرة نحو الخارج حتى أنه أوقع في طريقه أحد المقاعد.. ثم خرج من الفندق بعد أن سمعها تقول من ورائه وفي صوت خافت:

- يا إلهي.. يا إلهي..

ورآها تخفي وجهها بكلتا يديها..

* * *

وقضى السهرة وحيدًا في إحدى علب الليل لا يفكر إلا فيها.

هل انتهت القصة عند هذا الحد؟!

لقد كانا اتفقا على أن يسافرا سويًا في اليوم التالي، فهل ستلغي الاتفاق وتسافر وحيدة إلى سويسرا، بعد أن اكتشفت فيه هذه الغلظة وهذا الجنون، وبعد أن أهانها وأهان كرامتها عندما غادرها هكذا، وهي التي تربت وعاشت بين الكلمات الناعمة، وانحناءات الرجال وآداب الإتيكيت والبروتوكول؟!

لا.. لا يجب أن تنتهي القصة عند هذا الحد.. وهناك أمل، أمل كبير!

وقرر الاعتذار..

وعندما عاد إلى الفندق، أوصى البواب أن يعد له في الصباح الباكر باقة من الورد الأحمر.. وأوصاه أن ينتقي وردًا غير مفتحة تمامًا، منكمشة خجلة، تحمل معنى الاعتذار!

وفي الساعة الثامنة صباحًا، أرسل لها الباقة، وأرفقها ببطاقة كتب عليها بالإنجليزية «هل تستطيعين الصفح!».

وانتظرها في بهو الفندق إلى أن نزلت من جناحها، وكانت تحمل بين يديها باقة الورد وتضمها إلى صدرها ضمًا خفيفًا، وقد اختارت وردة منها علقتها في شعرها بجانب الخصلة البيضاء..

وقرأ في عينيها وفي ابتسامتها معاني الصفح، بل الشكر.. ثم دعته أن يركب معها سيارتها..

وقالت للسائق: «إلى ستريزا»..

وكان يجلس بينهما الطفل الصغير..

* * *

وكان الطريق إلى ستريزا صامتًا فلم يحاول أن يتودد للطفل بعد أن فقد الأمل فيه، ولم يحاول أن يتسلل نحوها بذراعه، ولا أن يزحف نحو ساقها بساقه.. ولم يحاول أن يعتذر لها عن الأمس، ولم تحاول أن تحثه على الاعتذار..

ولكن كانت عيونها تضج بأكثر من معنى.. معانٍ لم يقرأها في عينيها من قبل، وخصوصًا في النهار.. وكانت

عيونهما تلتقي في لمحات خاطفة فتبتسم ابتسامة لم يتعودها منها.. ابتسامة فيها من الدلال أكثر مما فيها من وقار، ثم كانت تدفن وجهها في باقة الورد الأحمر التي لا تزال تحملها بين ذراعيها وتضمها إلى صدرها.

وعندما قال لها ولدها:

- أماه أعطيني وردة..

أجابته في حزم لا يخلو من رقة:

- مالك ومال الورد.. خذ هذه الشيكولاتة!

وكانت المرة الأولى التي يراها فيها ترفض شيئًا لابنها..

ووصلا إلى ستريزا بعد ثلاث ساعات وأقاما في نفس الفندق، وانصرف كل منهما إلى حجرته، ثم التقيا في البهو بعد ساعة..

وشد ما كانت دهشته عندما لم يجد معها ولدها، ورأت دهشته فقالت من خلال ابتسامتها:

- لقد ذهب الأولاد مع السائق إنه يعرف البلد خيرًا مني!

وخرجا وحيدين ليقضيا النهار بين جنات ستريزا.. ركبا زورقًا طاف بهما البحيرة الزرقاء، وشربا كأسًا من الليمون «في الجزيرة الجميلة: ايزولا بللا» بين زهور التاليا، والأورتانسيا والجليول.. زهور حمراء وصفراء وبيضاء نثرتها يد الله في إهمال جميل فوق أرض

ستريزا.. وعاشا ساعات في قصر «بروميرو» أجمل قصور إيطاليا، وصعدا الجبل في القطار المعلق..

وكانت تقبل كل زهرة تقابلها، وكانت تصرخ فيه إذا وطأ بقدمه إحداها دون قصد منه، ثم كانت تشرح له قصص الزهور:

- هذه الزهرة اسمها «الخالدة» وسموها «الخالدة» لأنها تعيش العمر كله.. انظر إليها ليست جميلة، بل خشنة عجفاء كالعجوز.. فالجمال ليس من طبيعته أن يعيش طويلًا..

وهذه الزهرة تسمى «العذراء»، إنها تموت وتذبل سريعًا، ولا تعمر أكثر من ثلاثة أيام.. وهذا شأن كل عذراء!

وهذه زهرة «الأدلويز»، إنها لا تنبت إلا فوق أعلى قمم الجبال، ولن تستطيع أن تحصل عليها إلا إذا صعدت إليها.. وقد قتل كثيرون سقوطًا من فوق الجبل وهم يسعون نحو الزهرة العزيزة المنال..

وقال لها:

- إنك تشبهين الأدلويز، تضعين نفسك فوق قمة يصعب الوصول إليها..

قالت في حياء:

- ولكنك لا تريد أن تصبر حتى تصل إلى القمة، وتفضل أن تبقى في السفح، لعل الريح يقذف بالادلويز تحت قدميك..

وكانت في سيرها تضع يدها في يده وكانت أحيانًا تميل عليه حتى تسند كتفها على كتفه، وأحيانًا تدع وجهها يلتصق بوجهه في قبلة عابرة.. ولكنه كان جامدًا. فقد قرر أن يكون جامدًا رفقًا بأعصابه..

وفي المساء قضيا السهرة في مرقص اسمه «سلطان» يقع في إحدى حواري ستريزا، وحاول صاحبه أن ينفخ فيه ريح الشرق، فأتى ببضع ساقطات سمراوات أطلق عليهن أسماء فاطمة وزينب وعائشة.. إلخ، وكان هذا هو كل ما في المرقص من ريح الشرق!!

ورقص معها.. ولكنه ظل جامدًا كما قرر من قبل..

وأخذ يهتم بالموسيقى أكثر من اهتمامه بهمساتها، ويلقي بالًا إلى حركات قدميه لا إلى سخونة أنفاسها، وأبعدها عن صدره عدة مرات، ولم يتعمد أن يضع خده على خدها، وأوسع من خطاه حتى أصبح يرقص على طريقة الجنود الإنجليز..

وقد حاولت كثيرًا أن تخرجه من جموده.. مسحت خده بخدها وسكبت أنفاسها في أذنيه، بل قبلته في شفتيه ولكنه ظل جامدًا..

وقالت في توسل:

- ماذا جرى لك؟

- لقد رأيت أنه خير لنا أن نكون صديقين!

- ولكنك لا تؤمن بالصداقة بين الرجل والمرأة، كما قلت لي مرة!!

- إني أحاول أن أنسى أنك امرأة..

وتركته في منتصف حلبة الرقص، وقبل أن تكف الموسيقى عن العزف، واتجهت في خطى عصبية نحو مائدتهما، ثم جمعت حوائجها واتجهت نحو الباب..

وتبعها قائلًا:

- إلى أين؟

- إلى الفندق..

- ولكن الليل لم ينتصف بعد!!

- إني أريد أن أعود..

وسارا صامتين نحو الفندق، إلى أن التفتت إليه وقالت والدموع في عينيها:

- لماذا تقسو عليّ؟.. إنك تعلم أني في حاجة إليك، وتعلم أننا سنفترق حتمًا بعد أيام.. ألا يمكنك أن تكون لطيفًا ولو لأيام؟!

وقال في اعتداد:

- إني يائس من الوصول إليك.. إلى زهرة الأدلويز التي تعتلي قمة الجبل، ويائس من أن تهب الريح لتقذف بالزهرة بين ذراعي.. وخير لي بعد أن يئست، أن أكتفي بالنظرة إليها من بعيد!

وقالت وهي تلقي بنفسها فوق صدره:

- يا عزيزي، لقد هبت الريح وكانت أقسى من أن تقاومها زهرة الأدلويز!

ومنحته شفتيها يشرب منهما رحيق الزهرة العنيدة!

وعندما وصلا إلى الفندق، وضعت سبابتها فوق شفتيه قائلة: «صه.. لا تقل بونسوار!!».. واختفت داخل حجرتها وصعد إلى حجرته..

وبعد قليل سمع دقًا خفيفًا على الباب ودخلت..

كانت ترتدي ثياب النوم، ومن فوقها «روب ديشامبر» مطرزًا بدنتلا فينيسيا، وقالت وقد توردت وجنتاها: «أظن أنه يجب أن أقول أني نسيت شيئًا معك!»..

....

....

....

وكانت الساعة الخامسة صباحًا عندما غادرت غرفته. غادرتها متسللة على أطراف أصابعها.. نشوى..

ونسيت في نشوتها «الروب ديشامبر» المطرز بدنتيلا فينيسيا، فقام وعلقه فوق مشجب أمام عينيه، ونام وقد أحس أنه ملك الدنيا كلها.. ولأول مرة ينام قرير العين..

* * *

وقضيا صباح اليوم التالي يسبحان في البحيرة الزرقاء، وقد جمعتهما دنيا جديدة، وعهد جديد، وأنغام جديدة..

وعندما صعد إلى غرفته بعد الغداء وفتح بابها، وقف مذهولًا..

ما هذا؟!

وتقدم داخل الحجرة، وهو لا يصدق عينيه.. لقد كان «الروب ديشامبر» ذو الدنتيلا الفينيسية ممزقًا إربًا، وكان مبللًا بالدموع.. وكانت عدة قطع أخرى من ثيابه هو قد مزقت أيضًا، مزقتها يد عصبية حقود..

ما هذا؟!

من فعل هذا؟ ومن دخل حجرته في غيابه؟ وبأي حق يدخل؟

وكاد يدق الجرس للخادم ليسأله، ولكنه فضل أن يفكر قليلًا..

وقد فكر كثيرًا ولكنه لم يهتد إلى الفاعل الحقود الغيور..

وهرع إليها، فوجد بابها موصدًا، وسمع من خلفه صوت نشيج وبكاء مكبوت..

وطرق الباب، وأعاد الطرق، ولكن أحدًا لم يرد..

وانصرف واجمًا عائدًا إلى حجرته!

وقضى ساعات طويلة تمزقت خلالها أعصابه..

من فعل هذا؟!

سؤال ظل يتردد مع أنفاسه ويطرق رأسه في قسوة وعنف، حتى شعر بصداع عنيف لم تفلح معه أقراص

الأسبرين..

هل يكون زوجها قد وصل فجأة وشم رائحة خيانة زوجته.. فصعد إلى حجرته - حجرة العشيق - باحثًا عن الدليل وعندما وجده في الثوب المعلق مزقه في ثورة وحقد توطئة لحساب عسير؟

لا.. لا يمكن أن يكون الزوج، فقد تحدث أمس في التليفون من نيويورك وهو لا يزال مقيمًا هناك..

هل تكون هي نفسها التي مزقت الثوب.. لم لا؟ لقد كانت دائمًا عزيزة المنال، وكانت دائمًا حريصة على ألا تسقط، وقد بذلت مجهودًا عنيفًا لتحتفظ بتوازنها، ولم تستسلم إلا في ساعة ضعف شديد لم تستطع أن تقاومه، ضعف تتعرض له كل امرأة ولا تستطيع كل امرأة أن تقاومه.. وربما شعرت بعد ذلك بصراخ الضمير، ثم لما صعدت إلى غرفته لتأتي بالثوب الذي نسيته فيها اشتد صراخ ضميرها، وثارت أعصابها وهي ترى نفسها في مكان الجريمة وأمام دليلها الصامت.. فامتدت يداها بلا إرادة منها تمزق الثوب وكأنها تمزق الخطيئة عن جسدها، ثم بللته بدموعها تحاول أن تغسله من ذكرى ساعة تعرت فيها من إيمانها، ومن ماضيها، ومما أرادته لمستقبلها..

ولكن، لم لا يكون الفاعل هو الطفل؟ هذا الولد الذي لم يتجاوز التاسعة من عمره! ولكن هذا محال من أين له أن يقدر وهو في هذه السن؟ ومن أين له أن تشتد به

الغيرة إلى هذا الحد؟ ومن أين له أن يهديه عقله الصغير إلى أن هناك شيئًا يمكن أن يحدث في غرفة الرجل؟ ثم إنه لم ير شيئًا ولم يسمع شيئًا يمكن أن يثير في نفسه كل هذه الشكوك.. إنه طفل، مجرد طفل!!

إذن، من فعل هذا؟!

وطالت به الساعات وهو يطوف في أبهاء الفندق، ثم في شوارع ستريزا، وحيدًا مطرقًا مفكرًا..

إلى أن حانت ساعة العشاء..

ولاحت مقبلة من بعيد، وهي تسير مترنحة في إعياء حتى خشى عليها أن تسقط في كل خطوة..

وجلست قبالته.. صفراء ذابلة مقرحة الجفنين، وقد انسدلت خصلة الشعر البيضاء فوق جبينها في إهمال وكأنها سيل متجمد من الدموع، واستقرت عيناها الزرقاوان الحزينتان على لا شيء، وكأنهما زهرتان ذابلتان ألقاهما الريح في المجهول..

ولم تتكلم.. بل لم يتكلم أحد منهما.. وكان عشاء صامتًا واجمًا..

ودعاها بعد العشاء أن تسير معه على شاطئ البحيرة.. دعاها في صوت خافت متوسل، ولبت دعوته صامتة..

وقال بعد أن طال بينهما الصمت:

- لقد حدث اليوم..

وقاطعته في حدة:

- إني أعلم كل ما حدث اليوم..

- وأظنك تعلمين أيضًا من فعل هذا.. من اقتحم حجرتي؟ ومن مزق الثوب؟

- نعم..

- من؟

- ولدي هنري!

وصاح مرة ثانية:

- هذا الطفل.. لا، مستحيل!

ونظرت إليه وعلى شفتيها ابتسامة مُرة، في مرارتها زهو واعتزاز، وقالت وكأنها تتفاخر:

- إنه ليس بطفل.. إنه رجل، ورجل صعب!

- ولكنه مجنون!

- نحن المجانين!

قالتها بلهجة تحدً أغاظته وأثارته، كأنها ترد عليه إهانته لابنها عندما اتهمه بالجنون..

وقال في ثورة وحقد على الطفل الصغير:

- لم تعاقبيه؟ ألم تعاتبيه؟

- أعاقبه على جريمتنا؟ أعاتبه لأنه يغار على أمه؟ لا.. إن من حقه هو أن يعاقبني، ومن حقه أن يعاتبني.. أنا التي أخطأت، وأنا التي أجرمت..

- ولكنه كان يجب أن يحترمك، ويجب أن يكون له حد.

- وأنا أيضًا كان يجب أن يكون لي حد.. وأنا التي لم أحترمه..

- ولكن كيف حدث هذا؟ وماذا أوصله إلى حجرتي؟

- لقد لمحنا ابن صديقتي صباح أمس وأنا أقبلك في الزورق، فأسرع إليه وقال له: «ألحق.. إن أمك ستتزوج المصري، فقد رأيتهما في زورق، ورأيتها تقبله!»، وكبت الولد المسكين غيرته في صدره، كبتها طويلًا.. ولما لم يستطع النوم في المساء قرر أن يسألني عن حقيقة الأمر، فجاء إلى فراشي، ولما لم يجدني ظل ينتظرني خلف الباب حتى رآني نازلة من الدور الأعلى، حيث تقع غرفتك، مرتدية قميص النوم، فالتهبت النار في رأسه الصغير، وفضل أن ينطوي على نفسه ويترك النار تأكله، فاختفى من طريقي قبل أن ألمحه ودس نفسه في فراشه.. وفي الصباح كان ذابلًا واجمًا، ولكني كنت نشوى سعيدة فتية، فلم ألحظ ذبوله ووجومه، وغادرت الفندق معك.

وصمتت قليلًا وقد ارتخى جفناها فوق عينيها، وكأنها تؤنب نفسها على نشوة ساعة مرت، ثم استطردت:

- وقد صعد إلى غرفتك خلال غيبتنا، لا أدري لماذا؟ ربما بدافع يجهله هو نفسه.. وهناك رأى ثوبي معلقًا فوق مشجبك فجن.. جن المسكين العزيز، وانهال على

الثوب تمزيقًا، ثم بكى، ومسح دموعه بجريمة أمه، بالثوب الممزق كشرفه الملثوم..

وقاطعها معاتبًا:

- لا تستعملي هذه الألفاظ الكبيرة الجوفاء..

ولم ترد عليه، واستطردت وعيناها مركزتان في الفضاء البعيد:

- وقد لحظت شدة إصفرار وجهه عندما صعدت إلى غرفتي بعد الغداء، ولحظت أثر الدموع في عينيه، وعندما سألته؛ حكى لي كل شيء بصراحة كما عودني دائمًا..

وغطت وجهها بكفيها، وصاحت وهي تنتحب:

- ما كان أغباني، وما كان أقساني.. إني مجرمة.. مجرمة (والتفتت إليه) قل إننا مجرمان نحن الاثنين.. أو قل إني مجرمة.. قل.. دعنا نعترف، فنرتاح..

وعادت تبكي..

ووضع يده على كتفها في رفق، وقال وهو يكاد يذوب إشفاقًا:

- كفى بكاء.. لقد بكيت كثيرًا اليوم..

وكانا قد جلسا على سور «الكورنيش» الذي يحيط بالبحيرة وكان كل شيء حولهما حزينًا: الليل.. والنجوم.. وأعواد الزهر.. والقوارب المرتعشة فوق سطح الماء كأنها قلوب باكية ترتدي ثوب الحداد.. ولم

يكن هناك من صوت إلا صوت نحيبها الخافت كأنه أنات روح هامت وضلت..

وأحس بصدره يضيق وينقبض، وبأعصابه تختنق وتلتوي، وعجز عن أن يتكلم.. وماذا يستطيع أن يقول؟

لقد كتب فصول القصة بصبر ودقة، وعاش أيامًا ينتقل من سطر إلى سطر، حتى جعل منها قصة مغامرة رائعة جمعت قلبين كان كل منهما في حاجة إلى الآخر، واستطاع أن يجعل من هذه السطور ابتسامات مرحة، وأن يضمنها كل ما تحتاجه المرأة لتنتشي وتسعد، وكل ما يحتاجه الرجل ليشبع ويكتفي.. وكان يأمل في نهاية سعيدة يختم بها قصته.. نهاية إن لم تكن هي «التبات والنبات» فعلى الأقل فراقًا يحفظ للمغامرة جمالها وروعتها..

ولكن الشخص الثالث، أدمج نفسه في القصة رغمًا عنه، فأفسد كل شيء، وأوصل القصة إلى نهاية غير منتظرة، نهاية كئيبة لا ينقصها سوى دق دفوف الموت ليتم إخراجها!

ومن هو هذا الشخص الثالث؟! طفل لا يتجاوز التاسعة.. طفل ليس من حقه أن يعتبره غريمًا، وليس من حقه أن يغار منه، بل ليس من حقه أن يغضب عليه، فهو ابن السيدة التي تكفل بإسعادها..

وهبت نسمة من الهواء فرجت عن صدره المقبوض، وأفسحت مجالًا ضيقًا لأمل ضعيف، فتساءل، كما كان

يتساءل كل صباح: هل انتهت القصة عند هذا الحد؟

لا.. لا يجب أن تنتهي عند هذا الحد، يجب أن تستمر ولو ليلة أخرى، عله يستطيع أن يجفف دموعها بقبلاته، وعله يستطيع أن يعيد الابتسام إلى شفتيها..

وكانت قد كفت عن النحيب، وأراح صدرها البكاء.. فأمسك بيدها بين يديه وقال في لهجة لا تخلو من عتاب:

- هل نحن حقيقة مجرمان؟

وأجابت وأثر الدموع لا يزال يقطع كلماتها:

- إننا مجرمان في حق الناس، لا في حق نفسينا!

- دعينا من الناس، وسلي شفتيك هل أجرمتا عندما التقتا بشفتي؟

- إن شفتي لم تخلصا إلا لشفتيك!

- سلي صدرك هل أحس بوقع جريمة عندما التصق بصدري؟ وسلي ذراعيك هل أجرمتا عندما ضماني إليك؟ وسلي قلبك هل كان مجرمًا عندما خفق بين أنفاسي؟.. و..

- كفى.. لا تعذبني.. إني لم أحس بأني ملك لرجل إلا يوم ملكتني، ولم أحس أني مخلصة إلا يوم أخلصت لك.. لقد جمعنا القدر وكنت أريدك وكنت تريدني.. فالقدر هو المسؤول عن سعادتي معك، كما أنه المسؤول عن شقائي مع الرجل الآخر.. الرجل الذي أكذب عليه

وعلى نفسي وعلى الناس ألف مرة في اليوم، عندما أضع ذراعي في ذراعه، وعندما أشاركه الفراش.. وكانت نتيجة إحدى الأكاذيب، طفلًا ولدته وأفنيت نفسي في حبه، لأني لم أجد شيئًا آخر أحبه، وأفنى فيه.. ولكن لماذا أقول لك كل ذلك؟ لقد انتهينا، أنت وأنا..

- لا، لم ننته بعد.. سأذهب معك إلى سويسرا، أو ستأتين معي إلى فرنسا، وسنقضي أيامًا نسعد فيها! لقد منحني الله لك فلا ترفضي النعمة..

- أين الله في كل هذا؟

- إنه بجانبنا..

- لست متأكدة!

وألقت برأسها بين يديه، وأسدلت جفنيها فوق عينيها، وتركت نفسها لخيالها يصعد بها إلى السماء لتبحث عن الله.

ومد ذراعه يحيط به خصرها، وجذبها إليه في رفق، وأمال رأسها بيده ليريحها فوق كتفه، فاستسلمت.. ثم أخذ يعبث بأصابعه بين خصلات شعرها في هدوء وحنان حتى شعر بأنفاسها تنتظم، وأحس بها تكاد تغفو كما يغفو الأطفال..

ومال برأسه يقبل خصلة الشعر البيضاء، ثم قبَّل جبينها المتعب، ثم رفع وجهها بيده ونزل بشفتيه حتى التقيتا بشفتيها، فاستسلمت في ضعف.. هذا الضعف

اللذيذ الذي ينتاب المرأة بعد أن تبكي طويلًا حتى ترتخي أعصابها..

وبلل شفتيها بقبلاته حتى دبت فيهما سخونة الحياة، ثم شعر بذراعها تزحف فوق كتفه لتضمه إليها، وشعر بجسدها يستيقظ نشوان بين ذراعيه.. فألقى بنفسه فوق الحشائش وجذبها إليه، وهي لا تكاد تلاحق أنفاسها..

وارتفعت خصلة الشعر البيضاء تهتز في الهواء علامة التسليم، ومالت أعواد «التاليا» البيضاء تخفيهما عن نجوم الليل، واهتزت أعواد «الجليول» الأحمر تزفهما نحو مذبح الخلود..

وبكت زهرة «الأدلويز» - الزهرة الأبية الكريمة التي لا تنبت إلا فوق أعلى قمة في الجبل - بكت، عندما وجدت نفسها ملقاة على الأرض!!!

....

....

....

....

وكانت الساعة لم تتجاوز منتصف الليل عندما أوصلها إلى الفندق، وكانت متعبة خائرة.. أتعبها الحزن والألم والنشوة.. وعندما وقف يودعها أمام باب حجرتها، ألقت جسدها كله فوق كتفه.. وصمتت طويلًا بينما كان

يضمها في حنان، ثم رفعت رأسها وأراحت شفتيها بين شفتيه في قبلة صامتة تنبض بخفقات قلبها، وهمست:

- عشت لي!

ثم اختفت داخل حجرتها..

وصعد إلى حجرته، ولكنه تأكد بعد قليل أنه لن يستطيع النوم، وفضل أن يذهب إلى مرقص «سلطان»، حيث يجتمع أصدقاؤه كل مساء..

وغادر حجرته، وفي طريقه مرّ بباب حجرتها، فإذا به يسمع صوت بكاء يقطعه صراخ..

كان البكاء، بكاءها..

وكان الصراخ، صراخ الطفل..

ولم يتمالك نفسه، فاقتحم الباب ودخل بلا استئذان، وما كاد يراها حتى ذهل..

كانت منكمشة في أحد أركان الفراش، وكان الطفل الصغير المجنون واقفًا قبالتها ينهال عليها صفعًا بكفه الصغيرة!

كان يضرب أمه!

وكانت تصيح: «كفى يا عزيزي كفى يا صغيري.. كفى يا هنري»، ثم تستسلم للصفعات دون أن تقاومها وإن حاولت صدها..

وكان يصرخ: «لقد رأيتك تقبلينه لقد رأيتك.. لقد رأيتك»، ثم يهوي بيد مجنونة فوق صدغها..

وفي ركن آخر من الغرفة، انكمشت صديقتها صامتة واجمة
لا تتحرك، وفي عينيها حزن عميق..

وهجم على الطفل ورفعه بيديه، ثم ألقاه بعيدًا عن أمه.. وهو يصيح فيه: «إنها أمك، أيها المجنون».. وإذا بالأم تصرخ في وجهه وهي تزيحه عن ابنها وتبعده عنه.. تصرخ كاللبؤة الغاضبة: «دعه.. دع الطفل واخرج من هنا.. اخرج»!!

ووقف مشدوهًا..

وجرى الطفل وألقى بنفسه بين أحضان أمه وبكى وهو يقول: «دعيه يخرج يا أماه»، وقالت وهي تشارك ابنها في دموعه وتضمه إلى صدرها، قالت في هدوء للرجل المشدوه: «أرجوك.. دعنا الآن»!!

والتفت إلى صديقتها يسألها بعينيه عن كل شيء، فأجابته في يأس: «إنك لن تستطيع شيئًا»!

وخرج واجمًا يجر رجليه..

وخرج يضرب في حواري ستريزا وفي جبالها ووديانها، يحاول أن يرطب ذهنه المكدود بهواء الليل البارد.. وأحس أنه أصبح تائهًا، وأن خيوط القصة كلها قد أفلتت من يده.. إنها لم تعد قصته، بل أصبحت قصة خيالية فليس من المعقول أن يحدث هذا.. طفل صغير يضرب أمه!! إنها مأساة خيالية لا ينقصها إلا أن يقتل

الطفل أمه، ثم يقتل عشيقها، وبذلك تكمل فصول مسرحية «هملت» التي وضعها شكسبير!

ولكن القصة - للأسف - ليست خيالية، إنها الواقع وقد عاش فيه.. الواقع الذي لا يستطيع أن يفسره ولا أن يجد له تعليلًا..

لقد حاول أن يبحث عن تفسير معقول:

هل يكون الطفل مجنونًا، مريضًا بعقله؟

ليكن مجنونًا، وليكن مريضًا.. ولكن هي.. ما سر ضعفها أمام ابنها؟

ولماذا تستسلم لجنونه كل هذا الاستسلام؟

ولماذا لا تحاول تنشئته كما تريد وهو لا يزال في سن تقبل التنشئة وتقبل التهذيب؟ ثم ما سر هذا الجنون والذبول المرتسمين على وجهها، واللذين لاحظهما منذ اليوم الأول؟ وما سر هذا التناقض بين حزنها ووقارها، ثم تفانيها واستهتارها بين ذراعيه!

إنها زوجة شقية لا تحب زوجها، ولا يحاول زوجها أن يدعوها لحبه، بل يتركها أغلب شهور العام تطوف وحيدة بين مصايف أوروبا ومشاتيها، بينما هو يطوف بين فروع شركاته ويضيف إلى ملايينه ملايين..

ولكن هذا السبب وحده لا يكفي لتعليل هذا الحزن، وهذا التناقض، ولا لتعليل تصرفات هذا الابن المجنون..

إن هناك سرًا يكمن خلف عينيها الزرقاوين اللتين تلمع فيهما الدموع.. سرًا يجب أن يعرفه..

وقد قالت له يومًا: «إنك لا تعرفني، ولن أدعك تعرفني»، ولكنه صمم في هذه اللحظة على أن يعرفها وأن يعرف كل أسرارها، فهي لم تعد بالنسبة له امرأة عابرة، بل أصبحت له كل شيء.. لقد قيدت روحه بهذه الخصلة البيضاء من شعرها، وخلعت قلبه بهاتين العينين الحزينتين، ومنذ أن قبَّلها وهو لا يرتوي إلا من شفتيها.. وآه من قبلتها، وآه من شفتيها!

إن من حقه أن يعرفها، ومن حقه أن يضيف فصلًا واثنين وثلاثة إلى القصة التي خيل إليه أنها لن تزيد على فصل واحد قصير..

ونام، وقد رتب في رأسه خطوط الفصل الجديد..

* * *

واستيقظ مبكرًا متعبًا، ونزل إلى بهو الفندق، فإذا بالبواب يحييه ويبتسم له، ثم يقول في هدوء:

- لقد سافرت السيدة مبكرة هذا الصباح..

وصرخ:

- أي سيدة؟

- السيدة «فلانة».. لقد سافروا جميعًا في الخامسة صباحًا..

وكتم صرخة أخرى كادت تفلت من فمه، وقال في صوت مخنوق:

- ألم تترك خطابًا لي؟

- لا..

- ألم تترك عنوانها؟

- لا.. ولكنهم اتجهوا في طريق سويسرا..

وكان يعرف أين ستقيم في سويسرا، وقرر أن يلحق بها، ولكنه تذكر أنه لا يملك شيئًا من الفرنكات السويسرية، ثم إن صديقيه العزيزين لم يتركا له مهلة للتدبير وصمما على أن يصطحباه معهما في سيارتهما إلى باريس..

وسافر وقد قرر أن يشتري فرنكات سويسرية من باريس، ثم يعود فيلحق بها في سويسرا..

وقضى أيامًا في باريس، كان يرسل إليها خلالها برقية كل صباح، وأخرى كل مساء، وكانت برقياته تثير عجب عامل التلغراف في فندق كلاريدج، وتثير ابتسامات عاملة التلغراف في مكتب بريد «ري ديزاكول» بالحي اللاتيني..

برقيات اشتهر أمرها بين نزلاء الكلاريدج، وبين المترددين على مكتب البريد، فقد كانت برقيات غزل صريح، وليس من العادة - حتى في باريس - أن يتبادل العشاق برقيات الغزل..

أما هو فكان يعتقد أن البرقيات أكثر تعبيرًا وأكثر تأثيرًا..

أرسل لها في برقية:

«قبلي العيون الزرق من أجلي»!

وبرقية أخرى:

«احتفظي بقلبي، سأتبعه»!

وبرقية ثالثة:

«لا أستطيع أن أنساك، حتى في باريس»!

وبرقية:

«هل روحي معك؟ إنها ليست معي»!

وبرقية:

«شكرًا على زيارتك لي في حلم ليلة أمس، هل أستطيع أن أراك في حلم هذه الليلة؟!».

وبرقية:

«لقد اتفقت مع القدر أن تكوني لي إلى الأبد»!

وتوالت برقياته دون أن يتلقى منها ردًا.. كانت تعرف عنوانه في باريس وكانت تعرف أنه لابد سيتبعها.. فلا أقل من أن تقول له شيئًا..

ولكنها لم تقل، وفي كل يوم تقوم عقبة في سبيل سفره إلى سويسرا وفي كل يوم يرسل لها برقيتين وأحيانًا ثلاثًا.. وهي لا ترد..

وبدأ يشعر بالضيق، وبدأ يفقد أعصابه وبدأ يسهر كل ليلة حتى الصباح في إحدى علب الليل عله ينسى وعله يسلو..

وأخيرًا وصلته برقية..

ومزق غلافها في لهفة، ليقرأ فيها كلمتين اثنتين: «دعني لولدي»!

وعصر البرقية بين أصابعه في صمت ثائر، وأرخى جفنيه في يأس، وقد عرف أنه لن يعرفها أبدًا، وأن القصة قد انتهت!

حتى يملَّها.. فيلقي بها إلى العالم الآخر.. والقدر يلهو أحيانًا بدموعنا.. ويلهو بضحكاتنا.. إننا نبكي ونضحك.. لأنه يريد.. لا لأن من حقنا أن نبكي ونضحك..

كان قد وصل إلى جاكارتا - عاصمة إندونيسيا - منذ ساعات.. وكان يجلس على مقعد مريح في شرفة الحجرة التي خصصت له في فندق «لزاند» وقد خلع كل ثيابه إلا قميصًا أبقاه على لحمه، وسروالًا لم يطق أن يضمه حول وسطه فتركه مفتوحًا تتدلى أطرافه على جانبيه..

كان كل شيء حوله يذكره بالأفلام السينمائية التي تدور حوادثها في منطقة خط الاستواء.. الحر اللافح الذي يكوي بدنه.. والرطوبة اللزجة التي تغرقه في بحر من العرق، والمطر الغزير الذي لا يسكت والذي يقع على أوراق أشجار الموز في صوت أشبه بصليل القيود في أقدام العبيد.. والوجوه السمراء الذليلة التي تسعى بين يديه، والعيون المشروطة التي ينبعث من تحت أجفانها بريق عجيب فيه خوف وفيه تربص، وفيه استسلام وفيه ثورة.. ثم هذا الفندق الذي يقيم فيه والذي بُنيَ على الطراز الاستعماري العتيد.. طراز تراه دائمًا في كل مستعمرة.. تراه في الخرطوم وتراه في الهند، وتراه في بورما، وتراه في باكستان..

وأغمض عينيه وهرب إلى خياله كما تعود دائمًا كلما ملّ الواقع الذي يعيش فيه.. وتخيل نفسه في مغامرة عنيفة يجوب خلالها مستعمرات خط الاستواء ليحطم قيود العبيد ويرفع الرؤوس الذليلة.. ولكنه استسخف هذا الخيال، فقد كان هو نفسه مقيدًا بالعمل الذي جاء من أجله، ذليلًا في وحدته.. وكان أكثر من العبيد - الذين صورهم له خياله - حاجة إلى تحطيم قيود نفسه وإلى رفع رأسه..

وعاد يتصور نفسه في رحلة استوائية لصيد الوحوش.. وابتسم لهذه الصورة، فإن كل الوحوش الذين قابلهم في طريقه كانوا من البشر، وكل ما اصطاده هو أنباء تصارع الوحوش وهم يأكلون بعضهم بعضًا..

وملّ خياله.. وألقى بكوب عصير الليمون المثلج من يده، وقام وهو يمسك بأطراف سرواله بين يديه، ودخل إلى الحمام ليقف تحت الدش للمرة العاشرة في يومه!!

وارتدى قميصًا آخر وسروالًا آخر، وخرج يسير تحت المطر الكثير بلا مظلة وكأنه يسير في قاع المحيط.. إلى أن التقى بفريق من زملائه الذين جاءوا معه، فركب معهم سيارة وذهبوا يطوفون بأنحاء المدينة..

كانوا جميعًا مثله قد انتهوا من رحلة شاقة عصروا خلالها أعصابهم، وكان كل منهم يحس مثله بالملل،

والجفاف، ويتطلع إلى شيء يثيره وينسيه غربته ويخفف عنه الساعات القليلة الباقية ليعود إلى وطنه..

ولكنه كان أكثر مللًا، وأكثرهم إحساسًا بالجفاف..

وانكمش في ركن السيارة.. لا يشارك زملاءه حديثهم، ولا يكلف نفسه حتى مجرد النظر إلى الطريق..

وفجأة ارتفع صوت بوق سيارة يصرخ.. ومرت بجانبهم سيارة مجنونة كادت تدهم سيارتهم.. ثم وقفت أمامهم مرة واحدة.. ثم عادت تطوف حولهم في سرعتها المجنونة، وسمعوا من داخلها أصواتًا مختلطة تهلل.. ثم طافت بهم مرة ثانية وثالثة.. ثم امتدت من جانب مقعد السائق يد رقيقة صغيرة سمراء..

وعرفوا أن التي تقود السيارة المجنونة.. فتاة!

وصرخ أحدهم في السائق: قف!!

ووقفت سيارتهم..

ووقفت السيارة المجنونة أيضًا!

ونزل أحدهم وقال للفتاة في استجداء:

- إننا غرباء في هذه المدينة.. هل يمكنك أن ترشدينا إلى مكان نقضي فيه سهرتنا؟

وصرخت الفتاة في مرح وفي لهجة أمريكية سليمة:

- اتبعوني!!

وتبعوها وهي لا تزال تقود سيارتها بجنون.. وقد صمموا أن يتبعوها إلى آخر الأرض!!

كل ذلك وهو لا يزال منكمشًا في ركن السيارة، ينظر إلى ما يدور حوله وبين شفتيه ابتسامة يائسة، فلم يكن يعتقد أبدًا أن شيئًا في هذه المدينة يمكن أن يحدث ويخفف عنه ملله ويروي جفاف روحه..

وقادتهم وراءها طويلًا، حتى خيل إليهم أنها تلهو بهم، وأنها ستتركهم آخر الأمر في الفضاء.. ولكنها وقفت أخيرًا أمام حانة صغيرة يطل منها ضوء خافت، وينبعث من بابها صوت بيانو تترنح أنغامه من تحت أصابع سكرانة!

وتردد الزملاء في مغادرة السيارة.. من يدري، ربما كان كمينًا؟ وربما كانت الحانة وكر لصوص يقتلونهم ويسرقون ما معهم دون أن يترحم أحد عليهم؟!!

وخرج من السيارة الأخرى ثلاثة شبان وثلاث فتيات، لا يفصح الظلام عن وجوههم..

واشتد تردد الزملاء..

وأخذوا يتداولون الأمر فيما بينهم.. إلى أن صرخت الفتاة فيهم بلهجتها الأمريكية:

- هيا.. أيها الأطفال الكسالى!!

وأسرعوا بالهبوط من السيارة كأنهم تلقوا أمرًا من السماء..

ووقفت تعرِّف زملاءها بهم وتتلقى من كل واحد اسمه.. إلى أن جاء دوره.. ومد يده ورفع إليها وجهه.. والتقت عيناه بعينيها وقد أزاحا من بينهما ظلال الليل..

وخيل إليه أنه رأى هذا الوجه طول عمره..

خيل إليه أنه انتقل مرة واحدة إلى وطنه.. وأنه يقف الآن في شارع هادئ من شوارع بلده..

نسي أنه غريب في جاكارتا.. وأنها غريبة عنه!

وضغط على يدها بحرارة كأنهما على موعد بعد فراق طويل..

وضاقت ابتسامتها قليلًا وعيناها معلقتان بعينيه، ونطقت اسمها في تردد:

- فريدا..

ونطق اسمه..

وسحبت يدها من يده في بطء، كأنها تنزع نفسها من بين ذراعيه.. ثم التفتت إلى الجماعة تقودهم إلى داخل الحانة وتشيع بينهم الضحك والمرح..

كانت صغيرة القد كأنها تحفة أنيقة يضن خالقها أن يشكلها في حجم كبير حتى لا تضيع معالم فنه، وكانت رفيعة كعود من الدخان ينبعث من نار هادئة، وكانت سمراء في لون البن المحمص، وكان وجهها نحيلًا كأنها أتعبت أعصابها لتنسى شيئًا لا تريد أن تذكره، أو لتذكر شيئًا لا تريد أن تنساه.. وكان كل نشاطها في عينيها وفي شفتيها... عينان ملؤهما الإصرار على الحياة وفي كل لفتة من لفتاتها معنى يكذب ابتسامة شفتيها اللتين لا تكفان عن الابتسام..

وكانت جذابة.. كل شيء فيها يدعوك لأن تقترب وكل شيء فيها يملؤك بالأمل.. مهما تنوعت بك الآمال..

وجاءت جلسته بجانبها.. وربما تعمد، وربما تعمدت، أن يجلس أحدهما بجانب الآخر.. ولكن أحدهما لم يحس بهذا التعمد إنما جلسا بجانب بعضهما، وكأنه أحق الناس بها، وكأنها أحق الناس به..

ولم تمض دقائق حتى وجدا نفسيهما مستغرقين في حديث لا نهاية له.. وقد خيل إليهما أنهما أصبحا وحيدين بعيدين عن أفراد الجماعة والألحان السكرانة تصلهما من بعيد.. بعيد جدًا!!

فيم كانا يتحدثان؟!!

إنهما لا يدريان.. إنما الحديث لم ينقطع بينهما ولم يتصل.. إنما هو حديث كرحيق الزهور، يطوفان فوق كل زهرة ليمتصا بعض رحيقها..

وتململت الجماعة لانفراد أحدهما بالآخر.. فقام وجذبها من ذراعها إلى حلبة الرقص.. وأحاط خصرها بذراعه فلم يحس أن جسدها غريب عن جسده.. والتصقت به كأنها كانت دائمًا
ملتصقة به..

ورفعت رأسها عن صدره وسألته وقد كف عن الحديث:

- فيم تفكر؟!

قال وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- إني أتعجب للقدر الذي جمعنا، وأبحث عن وسيلة أقهر بها القدر إذا أراد أن يفصلنا..

قالت:

- خذ من القدر ما يعطيك.. ولا تسأل، ولا تعجب، ولا تحاول شيئًا!

قال، وقد عاد إليه حماسه الذي عرف عنه في وطنه:

- لماذا.. لماذا لا أتحدى، ولا أحاول؟! إن القدر ليس من حقه أن يأخذ ما يعطي، إن ما يعطيه القدر يصبح حقًا لنا ندافع عنه حتى ضد القدر نفسه..

قالت تقاطعه وهي تضع أصبعها الدقيق فوق شفتيه:

- ليس لنا حقوق.. إننا أعمار يلهو بها القدر حتى يملَّها فيلقي بها إلى العالم الآخر.. والقدر يلهو أحيانًا بدموعنا، ويلهو بضحكاتنا.. إننا نبكي ونضحك لأنه يريد، لا لأن من حقنا أن نبكي ونضحك..

قال وهو ثائر:

- مستحيل.. إني أستطيع مثلًا أن آخذك معي إلى أقاصي الأرض.. لأني أريد.. ولأنك تريدين.. لا لأن القدر يريد!!

قالت وهي تنظر إليه في تعجب:

- إني أريد.. ولكني لا أستطيع!!

واقترب منه أحد زملائه وهمس في أذنه أن ينهي رقصته مع الفتاة لأن أحد أصدقائها بدأ يثور..

وسأل الفتاة عمن يكون هذا الثائر الذي يغار عليها قالت:

- ابن عمي!!

قال في تخابث:

- صحيح؟!!

قالت في حدة:

- لست مسؤولة أمامك حتى أكذب عليك!

وأرخى عينيه صامتًا كأنه يعتذر.. وعادت تقول:

- انظر ماذا يفعل القدر.. لقد كنت سعيدة الليلة.. كنت مجنونة.. لقد ضحكت كثيرًا.. ثم دفعني القدر إلى غريب يسألني الحساب، ويجعل الحياة عندي أعز من أن ألهو بها..

وابتعدت.. وصرخ:

- إلى أين؟

قالت:

- سأجدك عندما يريد القدر!!

وسمعت زميله يقول إنهم عرفوا أن هناك مدينة صينية للهو تسمى «دنيا العجائب».. «وندر لاند».. وأنهم سيذهبون إليها..

والتفتت إليه في حدة قائلة:

- لا تذهب.. إنهم سيقتلونك هناك!

قال وهو ينظر إليها متحديًا:

- إنه سبب كافٍ لأذهب!

وأطلت من عينيها نظرة رجاء.. ثم جمعت كل إرادتها وابتعدت عنه..

ودعت أصدقاءها وخرجت بهم من الحانة.. وسمع صوت عجلات سيارتها وهي تمزق الأرض في صوت عنيف كالصراخ..

وذهب إلى دنيا العجائب في الحي الصيني بجاكارتا.. ولم يحاول أن يلتفت إلى الوجوه العجيبة التي تمر به.. الوجوه الصفر والعيون المشقوقة والشفاه الرقيقة.. إنما كان يلتفت خلفه كأنه سيجدها تتبعه بسيارتها لتنقذه قبل أن يقتل!

ووجد نفسه مع زملائه في صالة كبيرة دائرية أصغر من ميدان سليمان باشا قليلًا.. وقد ازدحم فيها شبان وفتيات يتراقصون، كلهم من الصينيين.. ولم يكد يلتفت بعينيه حتى لمح مقعدًا يرتفع في الهواء ثم يسقط على رأس أحد الراقصين.. وارتفع صراخ فتاة.. ثم تطايرت زجاجات فارغة في الهواء.. وساد ضجيج مفزع.. ولمعت أسنَّة مدي صغيرة.. وسالت الدماء.. والموسيقى لا تزال تعزف ألحانها الراقصة!!

وهرع الزملاء الواحد وراء الآخر إلى الخارج.. وجروا بكل ما في سيقانهم من قوى إلى أن وصلوا إلى سيارتهم..

لم يحاول أحد منهم أن يتقصى عن سبب المعركة ولا أن ينتظر نهايتها.. كان كل همهم أن يأمنوا شرها!!

* * *

وعاد إلى الفندق وجلس فوق المقعد المريح في شرفة حجرته وقميصه فوق لحمه وأطراف سرواله تتدلى على جنبيه، وفي يده كوب من شراب الليمون المثلج..

ولم ينم..

إنما كان يتعجب للقدر الذي كتب السطور الأولى من قصته، ثم ألقى القلم..

وحاول أن يطردها من خياله.. أن يطرد القدر الصغير.. الرفيع.. والوجه الأسمر النحيل.. والعينين الممتلئتين بالحياة..

إنها لا تعدو أن تكون منظرًا آخر جميلًا من المناظر التي مر بها خلال رحلته.. ولم يستطع أن يقف عندها..

إنها لمحة من هذه اللمحات التي تمر في حياة كل إنسان.. تخدش القلب.. ثم تختفي وتترك الأيام تتعب في تضميد الخدش!!

ولكنها ظلت في خياله..

وأحس بالثورة على نفسه.. الثورة على ضعفه..

إنه أضعف من القدر.. وأضعف من واجبه.. وأضعف من ضميره.. إنه عبد لكل هؤلاء.. عبد لا يستطيع أن

يثور ليضرب القدر، ويهمل واجبه، ويصفع ضميره، ثم ينطلق حرًا وراء الصدفة، ووراء عاطفته..

وأتعبته ثورته..

وأغفى على مقعده وكوب الليمون المثلج لا يزال في يده.. كأنه يقبض على أمل ميت!!

واستيقظ في الصباح وبدأ يستعد من جديد ليلقي بنفسه في دوامة العمل الذي جاء من أجله..

وفتح باب غرفته ودخل أحد خدم الفندق يحمل لفافة بين يديه..

وأطلت من عيني الخادم نظرة صامتة ووضع اللفافة على المائدة.. ثم خرج وقدماه الحافيتان لا تسمع لهما صوتًا كأنهما أقدام قط..

وتبع الخادم بعينيه دهشًا.. ثم تقدم وفض اللفافة.. وأخرج منها تمثالًا دقيقًا من الخشب الداكن اللون.. تمثالًا لفتاة من فتيات جزيرة «بالي» عارية الصدر.. ممشوقة القد تحمل على رأسها حملًا ثقيلًا، ولكنها تبتسم!!

ووجد بجانب التمثال رسالة كتبت بالإنجليزية وبخط أنيق:

«إذا شاء القدر ألا نلتقي فكل نصيبك مني هذا التمثال.. وإذا أراد القدر لقاء.. فإني أنتظرك في بيتي طول الليل»!!

ثم العنوان..

والإمضاء: فريدا!!

وصفق قلبه بين ضلوعه وزغردت النظرات في عينيه.. وقرأ الخطاب مرات بعدد أنفاسه.. واحتضن التمثال الصغير بيديه، وأخذ ينظر إليه.. كأنه ينظر إليها.. إلى الوجه الأسمر النحيل.. والعينين الممتلئتين بالحياة..

وأقبل على عمله كأنه ولد من جديد..

كان يعمل بحماس كأنه يستحث بحماسه النهار لينقضي، أو كأنه يجري ليلحق بالليل..

وكان متأكدًا أن القدر سيتيح لهما لقاء.. وبلغ من تأكده أنه أحس بنفسه عملاقًا كبيرًا يستطيع أن يهزم القدر إذا حال دون لقائهما..

وأقبل الليل وعمله لم ينته بعد..

وأحس العملاق أنه بدأ ينكمش.. وأنه بدأ كعادته يضعف أمام ضميره، وأمام واجبه، فهو لا يستطيع أن يضحي بعمله في سبيل لقائها.. لا يستطيع!!

وأغمض عينيه حتى لا يستمع إلى ثورة نفسه على نفسه.. واستمر في عمله، وقد بدأ يفقد حماسه له ومتعته فيه..

وانقضى جزء كبير من الليل قبل أن ينتهي.. وقبل أن يستطيع الفرار إليها..

وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل عندما وصل إلى بيتها في ضاحية من ضواحي جاكارتا.. ضاحية هادئة تختبئ بيوتها بين أشجار جوز الهند.. كأن كل بيت فيها يتستر على من فيه..

ووقفت به سيارة الأجرة أمام «فيلا» صغيرة أنيقة.. وفتح له الباب خادم أسمر صغير يرتدي ثيابًا رسمية كأنه أحد صبيان الملكة فيكتوريا الذين كانت تجيء بهم من الهند ليقفوا بين يديها رمزًا للإمبراطورية..

ولم يسأله الخادم عن اسمه.. إنما انحنى حتى كادت رأسه تلامس الأرض، ثم قاده إلى بهو كبير أثث على الطراز الهندي.. ما كاد يخطو فيه حتى التقت عيناه بها..

كانت واقفة في صدر البهو منتصبة القامة كالإله شيفا، وكانت ترتدي الساري الهندي في لون ذهبي، وأسدلت فوق رأسها طرحة الساري.. وقد أطلت من تحتها ضفائر شعرها الأسود كأنها ضفائر الليل تطل من وراء ذهب الأصيل..

وكانت تقف خلفها مرآة كبيرة بحجم الحائط في إطار مذهب تنعكس عليها صورتها.. وكانت رائحة البخور الجاوي تنبعث من مباخر صغيرة مبعثرة في أنحاء البهو.. فتشيع فيه جوًا رطبًا لذيذًا مخدرًا..

وخيل إليه أنه في معبد مقدس..

وتحامل على نفسه حتى لا يخر ساجدًا لآلهته الجديدة..

ولم تتقدم إليه.. إنما دعته يتقدم إليها كأنه يزحف على ركبتيه.. وكل ما يحيط به يملأ صدره برهبة مثيرة.. كأنه يعيش في أسطورة قديمة من أساطير الأولين..

وأمسك باليد التي امتدت إليه.. كأنه يتبرك بها.. ورفع إليها عينيه فخيل إليه أنها غير فتاة الأمس.. لم تكن فيها هذه الرعونة التي عرفها بها.. ولم يكن في عينيها هذا الصراخ الذي سمعه منها.. ولم تكن في لهجتها هذه اللكنة الأمريكية التي تتحدث بها.. كانت هادئة إلى حد الوقار.. وكانت مهيبة الشخصية إلى حد أن كل كلمة منها تكاد تكون أمرًا.. وكان جمالها مكتمل الشخصية.. هذه الشخصية الغامضة المثيرة التي يحس بها الغريب عندما يلتقي بفتاة من الشرق الأقصى!!

وابتسمت ابتسامة هادئة وهي تقول:

- كدت أفقد الأمل في رؤيتك..

قال:

- كنت مستعدًا أن أبيع عمري لأراك..

قالت وقد اتسعت ابتسامتها:

- ألم تجد مشتريًا حتى هذه الساعة؟

قال:

- إني للأسف أستطيع أن أبيع عمري، ولكني لا أستطيع أن أبيع واجبي.. وقد أخرني عنك واجبي لا

عمري!!

قالت:

- هكذا كل الرجال.. يجدون دائمًا منطقًا يقنعوننا به!!

وجلست على أريكة واسعة من الطراز الهندي، وأشارت إليه ليجلس بجانبها..

وجلس على حافة الأريكة مرتبكًا..

وقالت:

- تستطيع أن تستريح هكذا!!

ورفعت قدمها فوق الأريكة واستندت بظهرها على مسندها وهي تحرص على أن تغطي ساقيها بأطراق الساري المذهب..

وجلس مثلها..

وقالت:

- متى ترحل؟

قال وقد اكفهر وجهه:

- في الفجر..

وصمتت قليلًا.. ثم تنهدت كأنها تستسلم للقدر.. وقالت وهي تنظر إلى ساعة دقيقة في معصمها:

- إذن.. لقد بقي من عمرنا أربع ساعات!!

قال متمردًا:

- لا.. مستحيل.. سآخذك معي!!

قالت:

- إن الأعمار بيد الله.. لا بيدك!!

قال:

- إن الله وضع فينا إرادة لنمد بها من عمرنا.. لو أن الناس سلموا في أعمارهم لانتهت الدنيا.. ولكنهم صنعوا الأدوية ليمدوا في عمر الإنسان.. ولا بد أن هناك دواء لعمرينا..

قالت:

- لقد قضيت يومي أبحث عن هذا الدواء فلم أجده.. إنها حالة مستعصية.. فأنا مقيدة إلى هنا.. وأنت طائر إلى هناك!

قال:

- ولكن..

قالت تقاطعه:

- دعنا نختار كيف نقضي بقية عمرنا القصير.. هل نقضيه في لوعة الفراق أم فرحة اللقاء؟!

وسكت كأن لوعته قد انتصرت على فرحته..

قالت كأنها تواسيه:

- هل تفضل أن تخرج لنطوف بالمدينة؟

قال:

- لا.. أريد أن أطوف بنفسك.. أريد أن أعيش في أيامك كلها.. من أنت؟!

قالت:

- عجيبة.. ألا تعرفني.. لقد خيل إليَّ عندما التقيت بك أني عرفتك طول حياتي.. وإني عشت معك في بلدك كل أيامي.

قال:

- لقد كدت أناديك باسمك عندما رأيت وجهك!

قالت:

- أنت أيضًا؟!!

قال:

- إلى حد أني بدأت أقتنع بخرافة الحب من النظرة الأولى!

قالت:

- إنها ليست خرافة.. إن الحب يبدأ دائمًا من النظرة الأولى..

قال:

- ولكني لم أكن أعتقد أن النظرة الأولى تسمى حبًا!!

قالت:

- لأننا لا نعرف الحب.. إنما نجد أنفسنا فيه.. لا نعرف متى يبدأ ومتى ينتهي.. وهل هو النظرة الأولى أم

النظرة الخامسة.. أم النظرة الألف.. إنه كالأرض التي نُخلق عليها لا نحس بدورانها.. ولا نحس بمكاننا منها.. ولكننا فقط نجد أنفسنا فيها..

قال وهو يمسك بيدها:

- لو كان الحب هو هذا الصراع العنيف في صدري بين حنيني إلى وطني وخوفي أن أفقدك.. فأنا أحب!!

ونظرت إلى عينيه طويلًا كأنها ترى نفسها فيهما.. وقالت وهي تضغط على يده بكلتا يديها:

- حدثني عن نفسك.. قل لي ماذا فعلت بك طيبتك.. وماذا فعلت بك عواطفك.. إنك تبدو عاطفيًا حتى لكأن أيامك كلها عذاب!!

وحدثها عن نفسه.. عن أبيه وعن أمه، وعن طفولته، وعن شبابه، وعن دراسته، وعن عمله، وعن وطنه، وعن الثورة..

وقاطعته وهي تسمع كلمة الثورة:

- هل اشتركت في ثورة بلدك؟

قال:

- لقد تمنيتها طول حياتي.. وأنت.. ألم تشتركي في ثورة بلدك؟

وسكتت.. وطال سكوتها.. وقد بدا حزن عميق في عينيها، كأنه فتح بسؤاله بابًا تهب منه ريح سوداء..

وعاد يقول:

- هل أخطأت السؤال؟

قالت:

- لا.. من حقك أن تسأل.. ومن حقك عليَّ أن أجيب!

وعادت تسكت وفي عينيها نظرات قاسية.. كأنها تطرد من حولها أطيافًا مفزعة.. وتمتمت في صوت خفيض:

- أنا من ضحايا الثورة!

وبدأت تقص قصتها..

إنها من عائلة باكستانية نزحت إلى إندونيسيا منذ سنين.. وكان رب العائلة شأن كل مهاجر لا يحس بإحساس الشعب الإندونيسي ولا يقيم وزنًا للاعتبار الوطني.. فتعاون مع الهولانديين المستعمرين، وعين في منصب حكومي ارتقى فيه إلى أن أصبح من كبار الموظفين الذين ينسب إليهم الشعب كل ما يصيبه من مساوئ الاستعمار.. واستغل الابن علاقة أبيه بالمستعمرين فافتتح مصنعًا سار به حتى أصبح من كبار الثراة..

وكانت فريدا في العاشرة من عمرها عندما قامت الحرب واحتلت اليابان إندونيسيا وقبضت على جميع الهولانديين وأعوانهم.. وكان من المقبوض عليهم فريدا وعائلتها..

وأرسلت مع أمها إلى معسكر الاعتقال الياباني في سنغافورة.. وعاشت هناك عامين ترى النساء من حولها

يمتن جوعًا، وتسمع صراخهن وهن يجلدن بالسياط، ثم ترى الدماء الحمراء عندما يضيق أحد الجنود بواحدة من المعتقلات فيرفع سيفه ويذبحها..

وانقضى العامان وهي وأمها لا تزالان على قيد الحياة..

وانتهت الحرب.. وهزمت اليابان وعاد الهولانديون إلى إندونيسيا.. وعادت أيضًا عائلة فريدا، وبدأ شقيقها يعيد بناء مصنعه من جديد..

ولم ينقضِ عام وبضعة شهور حتى شبت ثورة الاستقلال في إندونيسيا...

وكانت ثورة لا ترحم المستعمرين ولا أعوانهم..

وهجم الثوار على بيت فريدا وأحرقوه بالنار.. ووقفت هي وأمها خلف جموع الثوار يشاهدون اللهب.. كانت أمها تبكي وتصرخ.. أما هي فكانت تحاول أن تسأل نفسها: لماذا؟!!

لماذا يحدث لها كل هذا؟!

لماذا سجنوها في سنغافورة.. ولماذا يحرقون بيتها الآن؟

ولم تجد جوابًا يقنعها إلا أنه حكم القدر..

واضطرت أمها بعد ذلك أن تعمل فيما تعمله الخادمات لتعول ابنتها وتدفع لها نفقات دراستها.. فقد اختفى

ابنها.. ولا يدري أحد إذا كان قد حرق داخل البيت، أم فرّ من إندونيسيا كلها، أم قتل خلال الثورة..

وفهمت فريدا أنها تتعلم لتعيش وتعيش معها أمها.. فبذلت كل شبابها في دروسها حتى نالت شهادة التجارة.. وعينت سكرتيرة في شركة كبيرة - هولاندية أيضًا - تنتج السكر، ثم ارتفعت حتى أصبحت موظفة كبيرة..

وكانت هذه قصتها..

واستطردت قائلة:

- ولم أحقد على أحد.. لم أحقد على الذين سجنوا صباي في سنغافورة، ولا على الذين أحرقوا بيتنا أمام عيني.. إنما أصبحت ضعيفة أمام أي يد تمتد إليّ بمعروف، لأني كنت دائمًا في حاجة إلى كل يد.. وفي أدراجي آلاف الأشياء الصغيرة التي أهديت إليّ.. ورود ذابلة لا زلت أحتفظ بها.. ولفائف فارغة كانت تحوي قطعًا من الحلي الرخيصة.. وأشياء كثيرة قد تضحك عندما تراها وترى مدى اعتزازي بها.. ولكن هذه الأشياء تمثل لي الجانب الإنساني في الحياة.. إنها برهاني الوحيد على أن نفوس الناس لا يزال فيها بعض الخير.. حتى الجندي الياباني الذي اغتصبني وأنا في الحادية عشرة من عمري كان فيه جانب من جوانب الخير، فقد جاء إليّ في اليوم التالي بعلبة من المربى أكلتها أنا وأمي.. إن العلبة الفارغة لا تزال عندي محتفظة بها

لتذكرني بأنه حتى الوحوش فيهم جانب من الخير.. وقد اعتمدت في حياتي دائمًا على هذا الجانب.. على أن كل إنسان فيه خير.. ليس في الدنيا رجل شرير ولا امرأة شريرة، فإنك لو بحثت في نفس كل رجل أو كل امرأة لوجدت منفذًا من النور تستطيع أن تصل منه إلى قلبه وتثير أرقى عواطفه..

وهزت رأسها مبتسمة قائلة:

- إني خبيرة في استغلال جوانب الخير حتى في الوحوش.. واستطعت بذلك أن يكون لي أصدقاء كثيرون ساعدوني في الحياة حتى أمنت الفقر والجوع اللذين تعرضت لهما في صباي..

وأشارت إلى أرجاء البهو الذي يجلسان فيه قائلة:

- انظر إلى هذا البيت.. إني أحاول أن أجعله صورة طبق الأصل لبيتنا الذي أحرقه الثوار.. ولكن البيت الآخر كان كبيرًا.. كبيرًا جدًا.. وكانت فيه أمي.. وقد ماتت قبل أن ترى ابنتها تعيد بناء العائلة من جديد!

قال وأنفاسه مبهورة لسماع قصتها:

- لقد تعذبت كثيرًا..

قالت:

- هكذا أراد القدر.. وقد ظننت أنه عوضني عن عذابي عندما أنقذني من الفقر.. ولكنه عاد يعذبني بك..

ومد يدًا مترددة وأزاح طرحة الساري عن رأسها فتكشف له الشعر الأسود اللامع كأن الليل تعرى من ثيابه..

وجذبها إلى صدره في رفق، وقبَّلها في مفرق شعرها، وهو يهمس كأنه يتكلم بخفقات قلبه:

- ستسعدين بي..

قالت:

- كيف؟!

قال:

- ستأتين معي!

قالت:

- إني مشدودة إلى هذا الوطن..

قال:

- إن وطنك حيث أكون!

قالت:

- إني لا أستطيع أن أبتعد عن موطن عذابي.. هنا تعذبت وهنا تعذب أبي وأخي وتعذبت أمي.. إننا اشترينا هذا الوطن بالعذاب!

قال:

- ستبيعينه بالسعادة!!

قالت:

- إني لن أكون سعيدة إلا حيث تعذبت!

قال:

- وأنا؟!

قالت:

- أنت عذاب جديد يجب أن أتحمله في سبيل هذا الوطن!

قال:

- لا أفهمك.. كنت أظن أن هذا البلد لا يساوي عندك شيئًا بعد ما رأيت منه!!

قالت:

- إن إندونيسيا لا تساوي شيئًا.. ولكن عذابي يساوي إندونيسيا.. ومهما زاد عذابي فسأبقى هنا.. لقد أصبحت كالمقامرة، كلما ازدادت خسارتها تمادت في اللعب حتى تعوض نقودها.. وكلما ازداد عذابي تماديت في الإصرار على البقاء في هذا البلد حتى أعوض هذا العذاب..

قال:

- لن أستطيع إقناعك!!

قالت:

- لا.. لن تستطيع.. دعنا نصمت فلم يبق من عمرنا سوى دقائق.. دعني أضع رأسي على صدرك وأغفو، فإني أتصور ليالي طويلة من الأرق والسهاد.. بعد رحيلك.. دع خفقات قلبي تتجاوب مع خفقات قلبك،

فإني أرى قلبي بعد لحظات يخفق وحيدًا دون أن يجيبه قلبك.. دع ذراعيك حولي.. اضغطني إليك.. فإن ليالي البرد القادمة طويلة.. والنساء أحيانًا يشعرن بالبرودة حتى في خط الاستواء..

ورفعت إليه عينيها السوداوين وفيهما ضراعة كأنها تتوسل إلى القدر أن يرحمها..

ومال بشفتيه واحتضن بهما شفتيها..

وأحس كل منهما برجفة في قلبه كأن قلبيهما في عناق..

وأحس كل منهما بأن شفتيه قد التصقت بشفتي الآخر حتى لا يستطيعان أن ينزعا بعضهما من بعض..

وضمها إليه.. ثم ضمها بقسوة..

وأحس كل منهما أن الدماء تكاد تنفجر من عروقه.. وأن أنفاسهما تتلاحق حتى لا يستطيعان اللحاق بها..

وفجأة.. دفعته عنها، وهي تقول كأنها تحاول إقناع نفسها:

- لا..

ونظر إليها بعينين متوسلتين.. فعادت تقول:

- كفانا عذاب روحينا.. ولنرحم جسدينا!

وصمت حزينًا..

واستطردت:

- إني لا أضن عليك بشيء.. إنك وحدك الذي أريد أن أعطيه دون أن يسألني.. إني أريدك أكثر مما تريدني، ولكن لنرحم جسدينا من هذا اللقاء الذي كتب له الفراق.. إني أستطيع أن ألتقي بجسدك بعد أن تذهب.. فارحمني!

قال في حنان:

- إنك على حق..

وألقت برأسها على كتفه، وأخذت تمرغ وجهها في صدره، كأنها تبكي..

* * *

وجلس في مقعد الطائرة ساهمًا.. لا يريد أن يحادث أحدًا من زملائه، ولا أن يحادثه أحد..

وعندما تحركت الطائرة أطل من النافذة التي بجواره ليلقي نظرة أخيرة على البلد الذي عاش فيه عمرًا لم يدم أكثر من أربع ساعات..

وفي جانب من المطار.. بعيدًا عن الناس.. لمحها هناك.. واقفة مرتدية الساري المذهب كأنها الإله شيفا..

ولم تكن تشير بيدها.. ولم تكن تتحرك.. بل خيل إليه أنها لم تكن تنظر إلى الطائرة.. إنما كانت واقفة جامدة كعامود من الذهب..

ومال بعنقه حتى لم يعد يراها.. ثم اعتدل في مقعده وجلس صامتًا لا يريد أن يحادث أحدًا ولا أن يحدثه

أحد..

وبعد لحظات، قام وأخرج من حقيبته تمثالًا صغيرًا من الخشب احتضنه بين يديه وأخذ ينظر إليه كأنه يناجيه!

وسأله جاره:

- بكم اشتريت هذا التمثال؟

وأجاب دون أن يلتفت إليه:

- بعمري!!